رواية

نَبَضانْ

"خفقة بين قلبين"

أسماء أيسر زيود

إن لم تُجد عزف الناي بنبض قلبك الحقيقيّ

لا تقترب من مكنونات روايتي

2019

زيود
نبضان/ اسماء ايسر زيود .- عمان : دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، 2019
( )ص.
ر.إ. : 6283/ 12/ 2019
الواصفات: / الروايات العربية / / الادب العربي/ / العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

جميع حقوق الطّبع والنّشر محفوظة.

لا يسمح بتصوير أو نسخ جزء أو كل هذا الكتاب بدون الموافقة الخطّية من المؤلف.

وكل مَن يُخالف ذلك، يعرّض نفسه للمسائلة القانونية

الطبعة الأولى، 2019

دار يـافـا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس 4778770 6 00962
ص.ب 520651 عمان 11152 الأردن
E-mail: dar_yafa@yahoo.com

الإهداء

لي نهارٌ طويل كالأفُق ...لي قصةٌ قديمة ... لي أمنيةٌ...لي شعرٌ...

لي كل شيء في لا شيء ...لي حكاية نسجتها عيناي من البحر على ضفافِ خيط الغروب ..لي شاعرٌ يغني كالبلبل الرنان خلف الناي في السمر ...لي تاريخ أرضٍ وحضارات ...لي شعبٌ عملاق كالشمس ...لي وطنٌ ضائع تلملمه جراح الطفولة هيهات ألم ...لي أسرى خلف قضبان العتمة تلاحقهم صيحات الغدر ...لي أمٌ كأرض أجدادي ..ولي عنفوانٌ في اللازورد ...لي ترانيمٌ...ولي مقدساتٌ..خلف صوت الأذان ...لي حياةٌ كباقي الشعوب ....ولي حريةٌ معلقة في لا مكان ....لي حجرٌ ولي يد تملك القوة خلف الحصار ....ولي مريميّةٌ ونعناع على كل حاجزٍ مغلق...لي مدينةٌ واعدة...ولي جيلٌ قادم ...ولي سلامٌ قادمٌ من القدسِ والشتات ....

فأهديكم كلّ ما لدي من عبق الوطن .

الشكر والتقدير

تنبضُ الحياةَ في قلبي حينَ أرى نورَ أمي وأبي

والحب ينقسم نصفين : نصفٌ أخي وأخواتي، والآخر أصدقائي

ومن أضاء لي الدرب يومًا

لم تنبض روح روايتي إلا حين خطّى نظره عليها

أ.د. فيصل غوادرة

ممتنةٌ لما أشار عليه قلمه

المقدمة

كتابٌ تملؤه الصفحات، تتغلل في داخلها آهات وآلام ...أحلام...أسرار...ثورات...أحداث...عصافير...تراب...كل هذا فوق الأرض التي يتخللها دماء وحجارة وقضبان...

والموت يقتسم قوانين الحياة تحت الأرض ،وحياتنا مبعثرة فوق النايات على ضفاف موسيقى تُطرب من غبارِ الذاكرة، وتشتعل بالأحداث.

أحلام وآمال تُطارد كائنات مُبعثرة تبث السمّ تجاهها ...وتسرق كلّ نجوم أضاءت ما حولها كفكرٍ كشف كلّ خبايا الطرقات المغبرّة ..ونشر الوعي في اللاوعي!

الطفولة رجل لا تعرفه إلا قليلا! بكلّ معنى الكلمة إنّه الشموخ والكبرياء، تركت لنا حبّ الاندفاع نحو الواقع المُغطرس بزواياه المتشتّتة، لنلملم قدراته في لا مكان ولا زمان ...ونزرعها في العظمة، لنحصد رجالاً من وطن.

الفصل الأول

” شاءت الأقدار“

مع حلولِ ترانيم الصّلاة...وغناء عصفور الصباح

والغيوم الصباحيّة المظلّلة وبزوغ الشروق.... وحنين قلبٍ دافئ وقلوب!

نودّع لحظة في لَمْح البَصر ! مع قطرة الندى في العيون وعودة الذاكرة إلى الوراء

مشاهد جميلة أو صعبة وقاسية قد حدثت !

لكنْ، ربما الحبّ هو الذي جعل القلب يدق من جديد

فتجتمع الكلمات صاخبة وكلمات الرحيل ...

حروف الهجاء كثيرة ربما كَثُرت أو قَلّت عند الوداع !

فيبني إيقاع الحياة ذاكرة لا تنسى...لا تنمحي مع الزمان

فتكون حيًا كالحياة !

فيجيء الصمت فجأة فتتوق الكلمة وتبكي العيون فرحًا أو حزنًا

لكنْ تشدّنا وصيّة الحبيب...قبل أيام!

أو ربّما الشوق القارس كبردِ ليلٍ خاطف ...

ويعمّ حول الذاكرة حبّ عميق في لحظاتٍ أبديّة !

جلست برفقة صديقتي الصحفية "وطن" في كافي شوب نعتاده دائمًا، نتبادل الحديث والضحكات والحزن وكلّ ما يعتري الحياة من حولنا، خلال الدقيقة الأربعون، حدث ما لم أتوقعه! كانت تشير بيدها صوبي، هذا ما أخبرني به النادل، لكنّني حينها كنت منغمسةً في هاتفي دون انتباه؛ جفلتُ من صوتِ ارتطامٍ في مكاني، فالتفت. إذ "بوطن" ملقاة أرضًا، أفزعني هذا المشهد المهيب وانقبض قلبي في صدري ! لم أتمالك هذا الموقف سوى بالصراخ؛ لتمتلئ ناحيتنا بالناس المتواجدين، تمّ نقلها لأقرب مستشفى، فصحُوَت بعد فترةٍ قصيرة لم أفارق يدها، وأنا أتوسل إليها أن تكون بخير...كان علي أن أخبر أمها، لكنّ ارتجاف يدي لم يسعفني لمسك الهاتف، في اللحظة التي ننتظر فيها نتائج تحاليل الدم !

أخبرني الدكتور بأنها بخير وتحتاج للبقاء هذه الليلة للاطمئنان عليها أكثر، استمع وأفكر بنفس الوقت، كيف بخير؟ ولما البقاء ؟ وأحدث نفسي "لينا" كوني قوية وتصرفي

بحكمة...سأمضغ هذا الموقف وأَعد لقوتي، أمسكت هاتفي واتصلت بخالتي "أم وطن" وحاولت استدراجها للمجيء بطريقةٍ سلسة دون عواقب، اجتمعت معها في ساحة المستشفى، وأخبرتها بما يلزم قوله، إلى أن تَفهمت ما حصل، كانت ردتها مقبولة بالرغم من أنها كأي أُم ينفرها مرض أبنائها؛ فهي حكيمة تتوخى الحذر ومؤمنة بقضاء الله، لم أجد قلبًا كما قلبها !

حين عدنا معًا إلى "وطن" انتظرنا بعض الوقت خارج الغرفة، حيث كانت تتلقى جرعاتٍ من الدم، يبدو أنّ دمها كانت نسبته هابطة حدّ الخطر، أخبرتني خالتي بأنّ "وطن" قد حدث معها ذلك قبل شهرين، إذ انخفض قليلاً، لكنّها كانت مواظبة على أدوية لرفع نسبة الدم للحد المطلوب، دخلنا الغرفة التي تتعالج بها بعد إذن الطبيب، كانت "وطن" تتبسم وعينيها شبه نائمتين، مكثت نصف ساعة، وعدت إلى البيت وأنا أفكر بنهاية هذا الشهر المؤلمة.

في آذار تُعلن الطّبيعة زهو الربيع، وتتفتح الحياة خلال زهر اللوز، وهواء الأحلام تُبعثره الفراشات، هاربة من نهاياتٍ شتويّة؛ فالكون لا يباغتنا كما تُباغتنا الأحداث، فهذا الخامس من آذار/مارس لعام 2010 م، أتحدّث كما يتحدّث أيّ شخص عن أرضه !! ربيعٌ

جميل، زهورٌ، حدائقٌ، أحلامٌ ورديّة كما يحلم (شباب العالم)...كلّ ذلك وأكثر!

مُزقت أحلامنا منذ الطّفولة، اغتصبت شجرة الزيتون كما يُقتلع طفلٌ من حضنِ أُمه، استوطنت أرضنا كما يستوطن السرطان أجساد المرضى، كلّ شيءٍ على هذه الأرض سُلب، لم يبقَ للحرّيةِ مكان !

كلّ يوم نصحو على أخبارِ الصباح (المأساويّة)، ونُحرم أحيانًا من ارتشافِ فنجان قهوةٍ وسماع فيروز، لأنّ كلٌّ منّا من هذه الأرض التي تضحّي من أجلِ شهيدٍ، وأسير، وجريح، ووطن .

إنّها العُروبة في قلبِ أُم احتضن صَبر السِنين الطّويلة، وبنتْ بأنامِلها جيلٍ واعد، ورسّخت حبّ الأرض في نفوسِ أحفادها، تلك المرأة الفلسطينيّة التي تختلف عن نساءِ العالم أجمع. الأحداث تَتكرر ليس في آذار، بل في كلّ شهر، ويوم، وساعة، ونحن نعاني..ويعاني الفلسطينيون في كل شبرٍ على هذه الأرض...

كعادتي كل يوم استيقظ باكرًا أرتب فراشي، وأذهب إلى تناول الإفطار مع عائلتي؛ لأنّه اليوم الوحيد في الأسبوع الذي نلتقي فيه على طاولة الإفطار المتواضعة...إنه يوم الجمعة، اليوم

الذي أنعم علينا الله به، يوم نتبادل به السلام سواء في المسجد، حين يلتقي المصلون جميعًا لخطبة الجمعة، وأداء الصلاة أو في الطريق، يوم نشعر فيه بالارتياح وبالنور الذي يملأ قلوب من يقرؤون سورة "الكهف". إنه يوم مبارك وعيد بالنسبة لي .

لكنّ الخامس من آذار يوم الغضب، كنت على علمٍ واستعداد لتغطية صَحفية للمسيرة المنتفضة ضدّ مصادرة الأراضي وتمدّد الاستيطان في قرية (النّبي صالح) التي تقع في الشمال الغربي لمدينة "رام الله"، تناولت الإفطار على عجلٍ حتى لم أتحدث كثيرًا مع أمّي كما ينبغي ...وذهبتُ لتجهيزِ نفسي للتواجد في المكان قبل الوقت المُنتظر، لأنّ جُموع النّاس سيتوجّهون للمسيرة بعد صلاة الجُمعة ....

قد وصلت للمكان في الوقت المحدد والتقيت بزميلاتي وزملائي الصَحفيين؛ لتغطية الحدث لجميع القنوات والصحف والمواقع الإلكترونيّة. لكنّ شعورًا غريبًا أصابني، لا أعلم إن كنتُ حزينًة من هذا الحدث ...أم أنّ شيئًا ما حلّ بي ؟!

ما إن باشرت بصياغةِ بعض الأسئلة في مخيّلتي لإجراء مقابلة مع منسقين المسيرة إذ فجأةً، خرقت أفكاري زميلتي "وطن" حين

أردفت قائلةً: "لينا اقتربي منّي حالًا ".

تابعتُ المسير إليها حيث كانت علامات استفهام تسيطر على جميع الصَحفيين في المكان والصمت يغزل من عيونهم قصةً وقوة، وتراب الأرض يجتذبني بحنيةٍ في القلبِ، ترتطم تارةً وتحلّق عيناي على كلّ شيءٍ من حولي تارةً أخرى ...إلى أن أصبحت بجوارها، حيث كنت على بعدِ عشرة أمتار من "وطن" .

- نعم "وطن"!! ماذا عنكِ ؟؟

- اااااااااه لو تعلمين ....

قاطعتها محدقًا بها بأعجوبةٍ .

- ماذا جرى ؟؟ قولي لي ؟

- سيتم منع الصَحفيين من التّغطية المباشرة للمسيرة ...الاحتلال أخبرنا الآن . أجبتها بعنفٍ يرتطم في داخلي، هذه مُهمتنا بل واجبنا، ليبدأ كلّ منّا بعمله !

- نعم معك حق ...هيا بنا !

-كانت "وطن" تحدثني بقوة، في حين كان وجهها يكسوه صفارًا باهت، مُتعبة الجسد وقوية الروح...لنبدأ !

مع اقتراب المسيرة، شاهدت بأمّ عيني الآلاف من المتظاهرين من جميع الأعمار وفئات المجتمع، إضافة إلى طلاب الجامعات المختلفة، والمتضامنين الأجانب، وهم يحملون أعلامًا فلسطينيّة، وتحتضن أعناقهم الكوفية . لم تكن المسيرة الأولى أو الأخيرة، في كلّ أسبوعٍ تُنظّم مسيرات ضد اقتلاع أشجار الزيتون المُباركة، وضدّ التشيك الإضافي لأراضي القرية والقرى الأخرى ومصادرة الأراضي والعبث فيها. هذه صورة مُصغّرة من عدسة الكاميرا عن الوضع الذي يعيشه كلّ فلسطينيّ، المواجهات بين الفريقين قد بدأت "فريقنا يهتف لا للاستيطان، وقد اكتسى المكان بالأعلام والشعارات" و "فريقهم قد حوّلته عدم السيطرة إلى فوضى غير قياديّة بين جنوده الجُبناء" .

قد اقتربت المسيرة نحو الهدف، والمواجهات مستمرة، إضافة إلى إطلاق قنابل الغاز المسيّل للدموع...تسبّبت بحالاتِ اختناقٍ في صفوف المواطنين ...وحالات اعتقال لعدد من الشبّان ومنع الصَحفيين من التصوير...إلا أنّنا مستمرون نحو نيل أبسط حقوقنا، من مصادرة الأراضي ومنع المزارعين من الوصول إلى أرضهم، والعنف الذي يتعرض له المواطنين من اعتداءات المستوطنين المستمرة وحالات الاعتقال الجائرة بحقِ شبابنا .

في الساعة السادسة مساءً أثناء عودتي إلى البيت وقع نظري في إحدى زوايا القرية على أطفالٍ يلعبون (الغُميضة)، ويركضون بسرعةٍ، للعثور على مكانٍ آمن لا أحد يستطيع أن يخطر بباله، أخذتني ضحكاتهم وبراءتهم إلى الذكريات التي لا تنسى، أذكر كنت دائمًا أختبئ في غرفةٍ صغيرة كانت تحت بيت (عقد) جدتي التي تضع بها كلّ (المونة) من زيت زيتون وبعض الفراش القديم، حينها لا أحد كان يعثر علي؛ فدائمًا ما كنت أفوز في هذه اللعبة وأشعر إنّني البطلة ! فهذا الوقت الممزوج بالغروب كان يروق لنا، إلا أنه كان يغضب والدينا عندما نتأخر ونرجع إلى البيت بعد أذان المغرب. أمي دائمًا ما كانت تحذرني من هذا الوقت، بأنه وقت خروج الشياطين ورسولنا الكريم-صلى الله عيه وسلم- حظّر منه، لكنّنا حينها كنا لا نعيرَ حديثها أيّ اهتمام ، سوى أن نفعل ما نريد ! إلى أن كبُرت وأدركت مدى وعمق كلّ كلمة تفوّهت بها أمي. وفي الحي الآخر صادفتني امرأة أربعينيةً ترتدي ثوبًا فلسطينيًا مُطرّزًا، مُضيئًا كالشّمس ،عيناها تغرورقان دمعًا، وكأنّها تائِهة في ليلٍ مُظلم يرتعش من نسماتٍ غريبة؛ فتصادمت عينانا وسألتني إن كنت صَحفية؛ لأنّني حينها كنت أرتدي بزةً عليها شِعار الصحافة (Press) يبدو إنّها على معرفةٍ جيّدة باللغةِ

الانجليزيّة، وقفت حالًا وتحدّثت معها ويدي لا تُفارق يداها:

- خالته، أكيد أنتِ كنت في المسيرة التي انطلقت اليوم إلى قرية النبي صالح...؟!

أجبتها باستعجال :

- بالتأكيد، كنت في تغطية الحدث...
- وهي تبكي بحرقة، "يبدو أنها انتهت...صحيح....لكن"
- يبدو بالك مشغولاً كثيرًا، خالته...!
- ابني ذهب، وللآن لم يعد !

احتضنتها كأنّها أُمّي لفترةٍ وجيزة، وأنا اشعر بفوضى كبيرة في مخيّلتي من أحداثِ هذا اليوم العَصيب الذي فجّر بركان في ذاكرتِنا والتصق، وتجوّلت بخيالي إلى ألمِ الاعتقال الذي حلّ بالشبابِ اليوم وسألت نفسي أمعقول ابنها من بين هؤلاء المُعتقلين ! يا الله أغدق عليها بصبرك إن كان ابنها.

- مسحتُ دموعها بخفةٍ كأنّني أداعب طفلاً فَقد أمّه، "خالته انتبهي لنفسك أنا بخدمة عينيك ..."

- اتصلت عليه كثيرًا والكل يرن عليْ ما يردْ... تلفونه مسكر ....اليوم كان عُرس بنت عمّه ....كنت أنتظر مجيئه ....وللآن لم يعد ..

- قاطعتُها، خالته لم يخبرك... ؟؟

- طلع بعد صلاة الجمعة وأجا عندي وقبّل يدي وراسي ورضيت علي ...وقلي...يما أنا رايح على المسيرة وما رح طول...بس منعته وحكتله انتبه ع دراستك هلأ، بس ما سمعني ...آخر كلمة قلي إياها رضاكِ يما وبس !!

- صراحة لا أخفي عليكِ اعتقل اليهود كثيرًا من الشباب....بس لبكرا بتسأله الصليب الأحمر...وإن شاء الله يعود لكم بالسلامة يا رب.

- الله يسمع منك يا خالتي ...وينولك لبالك ...وينك بيتنا هذا الباب الرمادي...تفضلي .

- شكرًا خالته...تأخرت كثيرًا على البيت رح أكمل طريقي، هذا رقمي لتتواصلي معي ...مع السلامة .

غادرت المكان كشهابٍ وسطَ السماء، وأتسابق مع وقت الغروب بعنفوانٍ، وأحدّق بأوراقي كطائرٍ يختلس من هنا وهناك حكاية

لصِغاره، ويروادُني حُلم العَودة كما كلّ يوم، لقد سُرقت مني كلماتي لتنسجها مفكرتي بمقالٍ مُنتظر ...

رنّ الهاتف ...

آآآه أمّي تتّصل بي ...

فوجدتُ نفسي أمام منزلنا ...يا للهول !

لم أشعر كيفَ وصلت، فتحت الاتصال بيدٍ ويدي الأخرى تفتح الباب وأمّي واقفة أمامي ...فضمتني إلى صدرها بشدةٍ "كيف لصَغيرتي لم تحادثني منذُ سبعِ ساعاتٍ، أيعقل ذالك !"

لأولِ مرةٍ أشعر بخوفٍ يطوّقني من جميع الجهات كعصفورٍ مقيّد لأنّنا نخشى فقدانه وفراقه، كما كلّنا نخشى الخسارةِ ونحاول دائمًا أن تُكلّل حياتنا بطوقِ ياسمين، ونرتعش من بردِ الظلام المُنغمس بخباياه؛ لأنّ الحقيقة دائمًا نلاحقها وهي هاربة مع الغُرباء، ونحاول أن نَسقي ظَمأنا بماءِ الوردِ لنعوّض عطشَ السنين الذي أتعبنا، وغرسَ أشواكِه في رؤوسِنا.

أصبحت الأيام كبيرة وواسِعة حافلةً بالأحداث، لكنْ ليس بكبرِ الوقت فيها بل بما تحتوي من المواقفِ الجريحة ،الحزينة، المؤسفة، حياتُنا تتغلغلها أعماقُنا وآهاتُنا، لكنّ بُرهان ما نتجاهله فرضَ

علينا معرفته، ورسّخ في نفوسِنا معنى الأمومة، أتحدث عن الأم المناضلة التي أصبحتُ افهم جيدًا عُمق مشاعرُها، كوني لأنّي صَحفية ودائمًا أقابل وجوههنّ المُنيرة، أو لأنّ بضع كلمات من أُمّي قد رُسّخت في ذاكرتي للأبَد، وأنّ التخلي عن حياتِك الخاصّة بعض الوقت، لكي تَصل بالآخرينَ إلى إرضاءِ مشاعرهِم المُفتّتة بالقهرِ، قد ترمّم جراحهم، وتكون قد خَدمت الإنسانيّة بروحٍ عفويّة.

رحت أجوب غرفتي تائهة من صداعٍ مُفرط، فأخذني النعاس فوق سريري، كنّا مُتعبون وعيوننا قد أرهقتها المَشاهد اليوميّة؛ فخلدتُ في سباتٍ عميق...يتخلّله مضَاجع الحياة و قسوتُها؛ فصحوتُ ووجدت نفسي في غابةٍ قد زارها الخريف على عجلٍ ، فكلّ أوراقي مُبعثرةٌ على الطاولةِ كفوضى خريفيّة .

حيث إنّنا نمتلك أسرارًا في فجّوةٍ لا نعرفها، ونسعى دائمًا في أن نُحظى في المقدّمات، أو على سُلّم الأولويات؛ لأنّ لا ذنب لنا في كل ما يحصل معنا، فحياتنا ليست لنا وحدَنا، هناك من يتشاركون معنا حتى صمتنا !

الهدوء يلامس المكان ...آآآه إنّها التاسِعة، عائلتي تجتمع في المساء

على أخبارِ التاسعة، غدوتُ إلى الصالون فوجدتّهم جميعًا أمام التلفاز منضبطين، لكنّني أفسدتُ هذا الانضباط المجازيّ حين خلعت رجلي بالطاولةِ عندما حاولت الجلوسَ معهم ...حينها أرهبتني نظراتهم إليّ ! انتهى الموجز ،وتحدثنا قرابةَ ساعة عن اليوم بعد مناوراتٍ ومناقشاتٍ عَصيبة، غادرت لأكمل باقي يومي؛ لأعيدَ ترتيب صفحات ذاكرتي؛ ولأنتقي أوراقي المُهمّة، وأثناء إعداد التقرير الصَحفي للموقع الإلكترونيّ الذي أعمل محررة معهم...اتصلت بي "وطن" للاطمئنان عليّ وتحدثنا قليلاً، وأكملت الكتابة كأنّني أرسم بخفّةٍ الأحداث التي لم تغادر مخيّلتي، وتصبُ في فوّهة الحقيقة تاريخ اليوم، بعد الانتهاء ارتطمت عيني على أخبار مدار الساعة بالحرف الواحد "من بين الشبان الذين تم اعتقالهم اليوم في مسيرة قرية النبي صالح طالب من جامعة النجاح الوطنية".

أدركت على عجلٍ أنّه ابن المرأة التي التقيت بها اليوم، كم كان مؤلمًا هذا اليوم، وكم ترك لنا بصماتِ حزنٍ وأسى وقت الذهاب، ووقت العودة ! أضحت كلّ الأوقات التي نمتلكها متشابهة، وروتين الحياة قد أدمنّا عليه، وكأنّنا لا نريد طلاقه رغم عِقابه المُتكرر، ورغم أشواك وروده المقتولة على زوايا الأمل .

غدوتُ كطفلةٍ تنظرُ إلى القمرِ بحنيةٍ وهي تريدُ أن تأتي إليها أُمّها لتخبرها حكاية كي تَنام، إنّها أمّي تفتح الباب بخفةٍ:

- بعدك صاحية !!
- آآآه من أين سيأتي النوم ...
- جلست جانبي تصفف شعري بأناملها الحريريّة..."وين شاردة ؟؟"
- أنا أنا ..
- لاء أنا ! مالك غير طبيعية اليوم، مكركبة شايفتك.
- من ظروف الحياة...
- يلا بتهون إن شاء الله .

أخبرت أمّي عن المرأة التي التقيت بها، قد حزنت عليّها كثيرًا وتأثّرت بحالتها وقت ما شاهدتها وهي في حيرةٍ تقاتل النسمات الغاضبة، والوضع العصيب الذي عشناه في هذه المسيرة المنتفضة، والمواجهات الشبابيّة الجريئة التي حلّت بهم من اعتقالٍ وضرب و اضطهاد، إلى تكسير كاميرات الصحفيين ومنعهم من التغطية، إلا أنّ قوة جبروتنا وعظمتنا كفلسطينيّين أشادت بكل ما أردنا، وحطّمت قوانينهم الرخيصة، فأدركني النُعاس وغفوت بين يديها الرقيقتين .

ككلّ صباح يأتي الصباح، أما الصّباحات الجميلة التي حدّثنا عنها أجدادنا في عكا والرملة وحيفا والقدس وميناء غزة... قد ابتلعتها الحروب منذ 1948 م . وخلال ذهابي للعمل على بُعد خمسة أمتار في الجهةِ المُقابلة لبيتنا، بيتٌ فلسطينيّ بامتياز تزيّنه اليَاسمين الدِمشقيّ وجميع ورود الزينة، تحتسي الخالة "جميلة" قهوة الصّباح المظلّلة بورق العِنب، ألقيت السلام عليها إلا أنّها أصرّت عليّ أنْ أشاركها فنجانَ القهوةِ وبما أنني لا أريد أنْ أكسر بخاطرها، فلبيتُ الدَعوة، وجلست مقابلَها على كرسيّ خشبيّ أمام طاولة مماثلة لها، وهي تعاتبني لأنّي لم أزرْها منذ وقت طويل، حاولت أن أرمّم العِتاب قائلةً لها:"بأنّ مشاغل الحياة والعمل أصبحت تحرمنا تلك الصّباحات وحتى الوجوه الطّيبة مثل وجهك المضيء"، أعلم أنّ الوقت الذي يفصلني عن بدء العمل قد شارف على الانتهاء؛ لكنّ هذا المكان اجتذبني ولم احتمل تركه لأنّني افتقد مثل هذا الصباح بل أحنّ إليه، أنهيت فنجان القهوة على عجلٍ و استأذنت الذهاب، أدرَكت تأخري برحابةِ صَدر، إلا أنّ ما وقع نظري عليه بعفويّةٍ في بيت الخالة "جميلة" من الشُرفةِ التي كانت تقابلني لوحةً تجسّد موسم حصاد القمح ببراعةٍ؛ فأخذت بي تلك اللوحة الفنيّة إلى زمنٍ نفتقده ونفتقد حلاوتَه،

رغم إنّنا الآن لم نعش لحظة واحدة فيها، لكنّنا نَحِنُّ إلى تلك الأيام وتلك الحكايات الموسميّة كما قال محمود درويش:

"أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي ..."

كلٌ منا متعطش إلى أغاني مَوسم "الحصاد" و"المنجل" و"القالوش" والى أيام أجدادنا الذين غنوا:

"أنا خيال المنجل والمنجل خيال الزرع

منجلي يا أبو الخراخش منجلي في الزرع طافش

منجلي يا منجلاه أخذته للصايغ جلاه

يا منجلي يا أبو رزة وش جابك من بلاد غزة "

قد حرمنا من الارتواء بها وشُتت ربوعنا في الشمال والغرب وفي الشتات، لكنّ عقولنا متشبّثة بكلّ حكاية رُويت لنا وكُتبت كروايةٍ أو أُغنية.

رغم كثافة الأيام وانهماكي بالعمل وضغوطه لم أنس لحظة "أم محمد"، صحيح إنّها لم تتصل بي؛ قد تكون أضاعت رقمي أو تشتت أفكارها بالوضع الذي مرت به، لذا أشعر بعطفٍ اتجاهها، وبحزنٍ وألم كبيرين، وكان عليّ أنْ أزورها ليس بصفتي صَحفية

بل كواجبٌ إنسانيّ، لكنّ ضغوط العمل قد أرهقتني وانشغلتُ عن هذه الزيارة العالقة في ذهني .

قد تمتلئ أوقاتنا بأشياء نرغبها أو لا نرغبها رغمًا عنا، وتمر من حولنا عدّة لحظات أحيانًا لا نجرؤ على عدّها؛ لأنّها تكون ليست لنا أو لا تمسّنا بصلةٍ رغم جمالها إلا أنّنا لا نملك ذلك الحظ الذي قد اصطادته عقولٌ جريئة وامتلكته كلمح البصر، وقد يُخيبُ الظّن بنا لأنّنا مُكتفي الأيدي أحيانًا، قد لا نريد أن نسطو على شيءٍ ليس لنا، لأنّنا نؤمن بأنّ ما لدينا يبقى لنا، ولنا حق امتلاكه والتشبّث به، وما ليس لنا، لا حق لدينا بانتِشاله من أيدٍ يُزينُها كما البحر بمائه.

صُعوبة الحياة ليست كلمة نُرمي بها على كلّ موقفٍ أوجعنا، أو على خسارةٍ مرّت بنا، الصعوبة هي بعدم الاكتراث بالأمور من حولنا، والتفكير اللاواعي الذي يجر بنا إلى لا شيء ولا رسالة، الأمل بالآتي قد يأخذنا إلى عالمِنا الذي نحلم به؛ لنصل إلى اللحظة التي نستطيع بها أن نملك ريشة نرسم بها مستقبلنا بكلّ ثقة، ونركب قطار الحياة لنمرّ على كلّ شيء حلمنا به ونعيشه ،كما تمنينا مع الأشخاص الذين نحبّهم ومنحونا السعادة.

في الثالث عشر من تموز/مارس كان عليّ زيارة منزل الأسير "محمد" لإجراء مقابلة مع عائلته، رغم إنّني كنت أود زيارة والدته قبل، لكنّ ظروفي منعتني منها، إلى أن قد أتى هذا اليوم بعد أسبوع على اعتقاله لكنّي خَجِلة منها لعدم قدرتي على الاطمئنان عليها، والوقوف إلى جانبها وقتذاك؛ فتوجهت أنا وزملائي إلى منزل العائلة في الساعة العاشرة صباحًا، وحصلت على إذنهم بالقبولِ بعد أن قدمت نبذَة عن نفسي، استقبلني والد "محمد" واعتذرت مِنه أنّ هذا اليوم هو يوم عطلة، لكنّني عَلمت مسبقاً بأنّ والده يعمل مُدرّسًا، وكنت متعطّشة لرؤية الخالة "أم محمد" وأرتعش للقائِها واحتضانها، كان الصمت يفرش بصماته في هذا البيت، في حين تحضّره وأناقته وورود الخجولة، بعد الجلوس في غرفة الضيوف، سألت عن الخالة لكنّ "أبا محمد" لم يجبني على الفور، بعد قرابة دقيقة قال لي وهو يهز رأسه، وعيناه تحتبس دموعًا : بأنّها ترقد بالمستشفى فور تأكيد خبر اعتقاله.

وقعَ الحزن في قلبي ولم أتمالك من إخفاءِ دمعةٍ واحدة؛ لأول مرة أشعر بانقباض عضلات صدري وانكماشها وبضيقٍ يخنقني، كم تمنيت لو بقيت معها ووقفت إلى جانبها، كم تمنيت للحظة واحدة لم أفارقها حتى أخفف عنها، أن أصبرها وأمسح دموعها

وأقبل جبينها ....أخبرني والد "محمد" أن "محمد" طالب سنة ثالثة في جامعة النجاح الوطنية، هذه أول مرة يتعرض بها للاعتقال، بالرغم من أنّه مواظبٌ على جميع المسيرات السلميّة و الفعاليات الطلابية في الجامعة، طالب متميز في تخصصه وشارك في عدة فعالياتٍ خيريّة، وبعد انتهاء المقابلة المكتوبة توجهت إلى المنزل فورًا وألقيت بنفسي على السرير كجرّةِ ماءٍ انكسرت فبلّلَت ما حولها .

كم من حزنٍ يأتي فجأة ويفرّق بيننا، وتضيع كلّ فرصة قد أتعبتنا السنين في نيلها، تلك الحياة التي أرمت بكاهلِ ثِقَلِها علينا.

إلى أيّ مكانٍ نرحل لأجله كي نرتاح ؟!

كم مررنا بكل خطوات حياتنا بلا راحة !

وكم سهرت عيون الأمهات وحرمت من راحة النوم، من أجل أن ترى النور في أبنائها وتغزل لهم السعادة...وبلحظةٍ سُرقت تعب السنين الطويلة وفرّقَت عيونهم وأحلامهم، لأجل منْ زرعت أمهاتنا في قلوبنا الأمل ؟

للوطن الذي سرقه الحاقدون واستوطنته عداءتهم

للحرية العالقة على قضبان السجون

للدموع التي تتغلّلُ في جفون أطفال الشهداء

لكلّ شيء ...

حين قال محمود درويش

"على هذه الأرض ما يستحق الحياة".

لم أتوقف عن التفكير بهذه المرأة التي التصقت في باطنِ قلبي...ويزداد الخفقان أكثر وأكثر، ويرتَابني شعورٌ غريب ...!

اتصلت بزميلتي وصديقتي أيام الجامعة "وطن"، أخبرتها بكلّ مجريات هذا اليوم والشعور الذي اعتراني ! وألححت عليها أن ترافقني بالذهاب إلى المستشفى، وتلقيت القبول مِنها على الفور، لم تخذلني هذه الصديقة ولا يوم، فما أشعر به تشعر به، وما يروق لي دائمًا يكون في سلم أولوياتها، تلك الصداقة الحقيقية التي تأخذ بنا إلى الترابط الذي ينسج القوة وتزرع الأمل في عيون من باتوا واقفين بصمتٍ في لا مكان ...

بسرعةٍ مُطلقة كنت جاهزة على ما يرام، وأخبرت أمي والتقيت "بوطن" على مدخل المدينة، كانت الشوارع تعجّ بالصخبِ، والسيارات تتسابق كما أسراب الطيور التي تسير على إيقاعٍ

منتظم، إذ فجأةً يأخذ بها النسيم إلى عشوائيّةٍ مُفرطة...والغرباء يمشون على أطراف الطرقات هنا وهناك وأهل المدينة يأخذهم الليل إلى مستشفى أو إلى حاجزٍ عسكريّ أو إلى مدينة تتخللها القيود ...

هذا حالنا!

كما نحنُ الآن "أنا" و "وطن".

وصلنا إلى المستشفى بحضور الأزّمة التي تتشربها مدينة "رام الله" عن غيرها من المدن الأخرى، أنهكتنا مشقة البحث بين الأقسام و الاستجوابات المطوّلة، وجدنا القسم الذي تتعالج به الخالة "أم محمد"، في تلك الأثناء وجدت يديّ فارغتين ولا ورد حولي، سألت "وطن": أين باقة الورد ؟! قالت لي وملامح وجهها تسكنه الغرابة: "لم نأت بشيء...الورد !!"أدركت أني فقدتُ عقلي فقلت لها "كيف يليق بزائرِ مريضٍ من غير ورد ؟؟"

اتصلت بإحدى المحلات التي تبيع الزهور وطلبت باقة وانتظرت قرابة نصف ساعة حتى وصلت لي، وتقدمت بخطواتي كطفلةٍ مشتتة، أوقف توجّسي العم "أبو محمد" حين ألقى عليّ التحية حيث كان خارجًا من غرفةِ المرضى، يبدو أنّها الغرفة التي تحتضن

زوجته، وسألته إن كان يسمح لنا بزيارتها، فأبدى موافقته بتواضعٍ وهو يتقدمنا ليخبرها بأنّنا قادمون، عندما لمحت عينيّ تبسّمت كوجهٍ ملائكيّ وأنا أتقدم بخجلٍ وارتباك، حاولت أن أقبّل يدها فمنعتني برقةٍ وهي تقول :

- ليش مغلبي حالك ...زيارتك أحلى وردة...وجهك ما نسيته ولا لحظة... وكنت حابب أحكي معك...بس...بتعرفي من اللخمة ما عرفت كيف سقط رقمك مني .

- أنتِ يا خالته أجمل وردة رأيتها .

اعتذرت منها لعدم زيارتي لها خلال هذه الفترة الوجيزة، وتقبّلتني بكلّ رحابة صدر، وسألتني عن صديقتي التي رافقتني وأخبرتها بأنّها زميلتي ورفيقة عمري "وطن"، فانتهت الزيارة رغم إنّني لم أشعر بهذه اللّحظة التي انقضت على عجل، لكنّ اللحظات الجميلة يسرقها الوقت ولا يدعنا نستمتع بها مطولاً، فغادرنا المستشفى وركبنا السيارة، وكنّا نمرّ على كلّ شارعٍ وزاوية كروايتين تخلّدُ كلّ ذكرى عالقة بين الطرقات، إلى أن أوصلتني "وطن" إلى البيت.

الأمُ وطنٌ، يمتزج بالحبّ والأمان وفخرٌ وحريّة وتشدّنا إليه روح

الأمومة وعنفوانها، والأمهات أوطان نسكنها، تتشابه في حنانها وعظمتها وصلابة تحملُها، كلٌّ منّا لديه أمٌ نرى في عيناها بريق أمل، نتعلم منّها روح المثابرة، الشموخ والكبرياء، صامدة كالشمس لا ينزع مكانها أحد، جبّارة كالجبال، الأكسجين الذي يملأ أرواحنا بالحياة، والكمال الذي تجعل منه عائلة، اليوم الذي يكمّلنا بحنانها، والحبّ الذي يسقينا ماء الورد الذي زرعته يداها الجميلتان ... أنت الوطن الذي نبحث عنه ...

في فرحنا وحزننا ، في كلّ لحظةٍ نحتاجك،

في كلّ خيبةٍ نريد عطفك، نحلم وما زال الحلم يرافقنا ،

بأنْ ترفُ عيناك علينا؛ لنسعد بكِ وتسعدي بما زرعته يداكِ في طفولتنا...

الفصل الثاني

" أعترف بخذلانك وأمي حكاية أخرى! "

قد تمرُ لحظاتٌ نشعر بها....

وتكون في وجه الآخرين ملاك....

وتحلّق تلك الذكرى في آفاقٍ بعيدة....

ربما نتذكّرهم قليلاً عندما مرّوا!

لكن كيف سنواجه تلك

النقطة التي غُمست في ماءِ الحبَق..؟!

وبلّت تلك الأوراق المدوّنة ..

على محطّاتِ الورق ..!

لكنْ

لم يستطع الزمان إخفاء

حبرَ الأقلام الواعِدة..

الحبّ كان قصة خُرافية

تداركته الأيام ..فكان حقيقة ..

أكان الماضي لعبة طفوليّة ؟

كنَّ نعيش بدايتها ونهايتها..

لكنْ

ما النهاية إذنْ؟؟

ربّما قد يمتزج الغد بالنهاية!!

لتشرق شمس البداية المتغيّرة...

تسبق الأمنيات/النّظرات

وتبتسم وردة المكان

وتقتل الأغنيات القديمة/الحزينة...

على معبرِ الحاضر

فيموت الماضي ..

على الضاحيةِ المعذّبة..!!!

قلبي يشعرني بأنّ هناك شيئًا ما، "وطن" في كلّ يوم أرى وجهها مُختلف، وكأنّ المرض لا يرحل بعيدًا سرعان ما يَعد، كثيرٌ ما تعتذر لتغيّبها عن العمل، لم أعد أرها كالمعتاد، وحتى لا ترغب

بأنْ يزورها أحد ! محادثاتنا قليلة وكادت تنقرض، هذا ما يجعلني أخاف عليّها بشدة، قد تمالكتها العزلة، وضعفت من مرضٍ، ربما لا يوجد مرضًا في الأساس، مجرد مخاوف اعترتها، فسكنت في غياب !

حين زرتها الأمس في بيتها، كنت أحاول أن أبذل قصارى جهدي ، لتسترد لها قوتها، أحسست بأنها مؤمنة بأفكارها وأصبحت أسيرة لها، وفاجأتني حينما أردفت قائلة وهي مغلقةٌ عينيها: "تعلمون جميعًا إنّني أكره الخديعة وتقمّص الشخصيات، أشعر إنّي في فلمٍ سأكون أنا الخاسرة فيه !"، صمتُ لبرهةٍ، وأعصر تفكيري لأنفض عنّه الغُبار، هل أنا حمقاء لتلك الدرجة ؟ يا للهول، لم أحتمل؛ فأنا مثلها لا أفهم شيء، لماذا تجمعني بهم ؟

كان عليّ أن أجيبها: ""وطن" تعلمين أنه لا يعقل بأن يُسرد أمامي حديث أسرتك، فأنا لست من هذا البيت، لكن ما أعلمه أنك بخير، وهذا ما سمعته من الأطباء، وأخشى عليك أن تلوميني فيما تشتتني كلّ أحوالك، التي لم أعتاد منك سوى القوة ! عودي إلى صوابك أرجوكِ ؟". أغدقت في عينيّ، وهي تمسك بيدي وتخبرني قائلةً :"أنتِ أختي الوحيدة، ولم أشعر بيومٍ أنكِ صديقة فقط، بل من أعيش معها كلّ تفاصيل أحلامي

وذكرياتي، لكن حين أشعر بدوارٍ يفقدني طاقتي وحيويتي، ألعن كلّ ما سمعته من عبارة" أنتِ بخير"، أريد من هذا الوهم أن يفارقني !"، لا أعلم الحقيقة، معتادون على سماعِ هذه العبارة من الأطباء"ليس لديك أيّ شيء"، ماذا لو كان هناك شيئًا ما لا يعلمه إلا الله ؟

الغياب لم يُغلق أبوابه، بل تركها مفتوحةً على مصراعيها، كان محتومًا علينا واقعًا لا فرار منه، حتى أن تقاريري كان يتصدرها الغياب، لم ننج من رياحه العاتية؛ فأطاح بنا في حضوره، لا زلت أنتظر كلماتٍ تُنجينا من لذعِ الألم، وحرقة البعد، وجوف الفراق، لا يسعنا الفرح أحيانًا فسرعان ما ينطفئ، كأننا مَجبولون على تغيّر الحياة بقلبِ الصورة لا انعكاسها !

بين الفيّنة والأخرى كنت أتصل بالخالة "أم محمد" للاطمئنان على صحتها، وبعد حوالي شهر من اعتقال "محمد" تمكنت عائلته من معرفة اسم السجن الذي يقبع به، لم يتمكنوا من إرسال ما يحتاجه من ملابس وأغطية بسبب الرفض الجائر من إدارة سجون الاحتلال وحتى من الزيارة .

إلى أن قام والده بتكليف محامٍ لمتابعة ملف الاعتقال، الأمر الذي

قد يسهل بعض الشيء من تمكّن عائلته بزيارته، لكنّ محاولات طلب زيارته خلال شهرين من اعتقاله باءت بالفشل، لم يكن الأسير الوحيد الذي يُحرم من زيارة عائلته بل هناك المئات والآلف من الأسرى الذين يُحرمون لفترةٍ طويلة، كانت هناك أحلامٌ متعطّشة لرؤية "محمد"، لم تتمكن والدته من ضمّه وشمّه كما كانت تحلم، بل تريد أنْ تستنشق روحه خلف القيود والسلاسل وأنْ تلمح عينيه التي يسكنها الوطن، أنْ ترتوي قليلاً من حبه الذي يتغلغلُ في أعماقها بفترةٍ أقصر من لمح البصر...أمنياتٌ كُثر ترتاب في قلوب الأمهات !

أحيانًا الغياب يقفل الحياة أمامنا ويجعلنا نتخبّط بهواجس الموت والبعد ،ويأخذنا في طريقٍ ترصُدها المخاوف، وتصبّ بنا الأيام في قوقعةِ الانغلاق والترقّب، هذه الحالة يعيشها أغلبنا على هذه الأرض، ويسكننا طيفها، القوانين العشوائية التي تحكمنا تجعل منّا من يفقد النوم ويفكر بمن يحب بكلّ ثانية؛ لأنّه يخشى النهاية وما زالَ متشبثًا بأثرِ ما تبقّى من الحياة، لم يزل الوقت الذي مضى مفتتًا بين أوردة يحرّكها خفقان الدم المرتفع فجأةً وبلحظةٍ ينخفض، حالة لم يسكنها التوسّط ولا حتى النسبة الطبيعية .

إلى من يقبعون خلفَ هواجس القضبان الاذعة بوحشيّة القانون الدوليّ الموشّم بهيئاتِهم ومنظماتهم التي تنبض بقلب الاحتلال وتصوّر لنا بأنّها تتنفس من القانون الدوليّ لحقوق الإنسان !

أسرانا جميعًا أنتم نَبض القلبّ

والروح التي تسكنها الطبيعة من أجل تحريركم !

الوقت يمرّ على عائلة "محمد" وهم يترقّبون اليوم الذي تصدر به المحكمة الحكم الذي ربما قد يكون عصيبًا، خفيفًا، أو طويل الأمد، و"محمد" بين رفاق درب العروبة التي تسكن معهم أرقام غريبة، منهم يقبع في السجن خمس سنوات، اثنتي عشرة، أربعًا وعشرين، سبع عشرة، مؤبدًا، مؤبدين، مدى الحياة ،...، أرقامًا عشوائية لا تشبهم، لكنّ السجّان لا يدرك ذلك، ولا تمسه الإنسانية بصلة !

غريبٌ عن أهله، عن أصدقائه، عن جامعته، عن زملائه، عن بيته، عن كتبه، عن وعن...لكنّه الآن بين من تحتضنه عيونهم، بين من يشمون رائحة الوطن من ثيابه، و هو ليس غريبًا بين أبناء أرضه، لكنّ الغرابة في مكانٍ -السجن- لا يليق بهم كأحرار.

" المذكّرة الأولى "

كما أنّ هناك صداقة في العالم الخارجي، أيضًا العالم المغلق الذي لا يرى النور يسكنه قلوبٌ طيّبة ونفوسٌ تغار علينا من نسيم الأغطية التي تسكن الغرفة، وفي الجهة الأخرى الخوف على من تبقوا لنا لإكمال الحياة، من يلدغهم الغياب ويشتتهم، من يرون طيفنا في المكان الذي اعتدناه وفجأةً نختفي من أمامهم ! من تركوا لنا شُرفة لرؤية المقعد الذي نحبّ مجالسته، ولرؤية الورود التي تكبُر بلطفٍ وأمان على أملِ أن تُزيّن بالسعادةِ أيامنا وأحلامنا.

لكن ! فجأة نصحو من تلك السطور التي تمرّ سريعًا في أفكارنا ونرى من هم أشدّ ألمًا منّا، تنتعش الابتسامة على محياهم، لنشعر للحظةٍ أنّهم قرؤوا عيوننا بعنفوان، واستعطفونا برقةٍ، لنتبادل معهم بعفويّةٍ حياتنا وحياتهم بحديثٍ، ومواقف، وذكريات ، وحقائق نبوح بها لأولّ مرةٍ !

في داخلي حزن ربما لا يسكن أحد بهذه النسبة، قد يكون خسارة أو حلمًا سُرق، لا أدري ما يختلج في صدري ؟

لكنّ هواجس الأيام الماضية تتسلقان صَحوتي وغثَياني رغمًا عنّي، وتقتلني بسيفٍ بطيء، وينتابني شعور الوحدة المعذّبة بين

المنفى والغياب، وأنا لا أعلم إن كان لي حياة في المنفى أم سأمكث في غياب.

هل تركتُ أحلامي مُعلّقة على مقعدي الجامعي ؟ هل سَتخذلني تلك الأيام التي تركتها رغمًا عنّي ؟ أيعقل أنّي سأبقى في ذاكرةِ من تركت لهم بَصمتي وتضحيتي ؟ أسئلةٌ كثيرة تعبث بذاكرتي ! تصعقني كضربةٍ تماسٍ جَارف، لا أملكُ أجوبَة مُقنعة كأنّني بلا شيء، ماضٍ في ليلٍ مُظلم، أفتقد كلّ ما كان يروق لي، حتى إنّني أفتقد النجوم اللاّمعة التي تضيء الكلمات التي اعتدت قراءتها حين يعمّ المساء، افتقدت الروتين الذي يصبو إليّ، لكنّني عثرت بأنّي أفتقد من هم أملي ونبض دمي"والديّ" ...

عائلتي الصغيرة التي لم أذكر يومًا أنّني تركت لهم رحيلي بلا إذن ! كنت لهم دومًا طفلهم الصغير الذي يخافون عليه من نسيمِ الهواء وشروده، كنت لهم أملهم البعيد الذي كانوا يحلمون به ويرجونه، أمي وأبي، وأنا بين أنين البعد أنتم الغد الذي أحلم به، أختي الصغيرة لم أغف من سماع صوتك الشجيّ الذي لا يفارق مخيلتي كما الناي، أشتاق فوضويتك التي تعبث بكتبي وقت الضّجر، أشتاق كلّ لحظةٍ مَعكم، أحنّ إلى الوقت الذي يجمعنا بعطلةٍ كنّا نتمنى استعجالها،أحن ...وأحنّ إلى قهوةِ أمي .

الضيق الذي حلَّ بي للّتو، قد أوقعني في حربٍ مع نفسي في خسارةٍ فقدتها قبل عام، وجرحتني في هذا العام، ربما البُعد قد اختاره الله لي؛ ليكون أرحم وكخفّةِ الماء البارد الذي يطفئ توهّج قلبي، فغدوت أسيرًا في قلبي ومشاعري، وأسيرًا فلسطينيًا من بين آلاف الأسرى الذين يقبعون خلف الظّلم المقيّد الذي لا ينظر إليه العالم أجمع !

أفتقد المدينة التي أنتمي إليها، وأفتقد كل شيء جميل على هذه الأرض رغم الألم الذي يعبث بأحلامنا !

نابلس الشامخة المضيئة؛ إنّني لم أكمل عامي الثالث بين أحضانك، اشتقت إلى تلك البقعة التي تجمع قوافل العلم في قلب المدينة. إنّي أرى نورك في عيون من أصبح لي صديقًا في هذه الغرفة الصغيرة التي أقطن بها، "مجد" ابن نابلس (جبل النار) المدينة الدمشقيّة الحلبيّة، أسيرٌ مُنذ خمسة عشر عامًا، المحكوم بخمسة وعشرين عامًا ومؤبدين، تلك الحياة الأسيرة التي يعيشها الفلسطينيّ بمرارتِها وعلقمها، فأنا لم أرَ سوى الصمود الذي يتجلّى في وجوههم، والكبرياء الذي يسيل من حروف كلماتهم .

صديقي "مجد" إنّ حديثنا لم يتجاوز الساعتين فقط في حين

التقيت بك لأول مرة، فقد استمددت منك قوةً سوف لن أفقدها طوال حياتي، جعلتني أشعر كأنّني أعيش في مكانٍ يملؤه الحبّ، يغدو كلّ يومٍ نور شمس الصباح، عظمتك تلك تعني لنا وطنًا بكلّ ما تحمله الكلمة من عظمة، شموخٍ وإصرار...

حدّثني "مجد" عن الأزمة التي مرَّ بها وقت اعتقاله، وعدم تمكّن عائلته من زيارته، عن فقده وقلقه الدائمين على زوجته وطفلته الوحيدة "بيلسان"، التي أصبحت الآن في عامها الخامس عشر، بعد قرابة عامين أو أكثر قد أتت اللحظة التي كان يحلم بمجيئها؛ ليرى نور عيون "بيلسان" الخضراوين، تتشبث بوالدها الذي كبُرت على رؤية صوره، السنوات الطويلة التي عاشها بعيدًا عنهم والفواصل الزمنية التي كانت تعتريه بمخاوفه وألمه الشديدين، تلك الحكاية التي لم تنته ...

قد مرّ الشهر الأول وأنا أتلفظ أمي وأبي في حلمي، محرومٌ من زيارتهم، أتوجّع خيبتهم وأنا أنتظر...وأنتظر!

وكأنّ العذاب كان يترقّبني!

في السابع والعشرين من نيسان/إبريل نهاية طرقت روحي بلا استئذان، واستوطنت جسدي، اليوم الذي كان على مشارف انتهاء

الشهر الثاني، فأنا أغادر الغرفة التي قبعت حريتي مقيّد اليدين إلى الجحيم، وجدت جسدي وكأنّ روحي زُهقت في صندوقٍ يكاد يتفجر من ضخامة جسدي، إنّها الزنزانة التي يعتقدون بأنّها نقطة ضعفنا واستسلامنا، وحتى من شدّة التحقيق وأثاره الموحِشة على جسدي ، ولكن ما لبثت أن تجاوزت تلك النقطة ..

لم أفقد السيطرة على ذهني كالطفل الذي يأخذنا إلى متاهاتٍ لينتصر علينا بمبتغاه، فلا أنكر العذاب، الألم، الإهانة...وحين كانت تطالعني عيونهم القاتلة؛ فبقيتُ أتشبث بالحياة؛ لنحيا بكرامة.

أنا كأيّ شاب فلسطينيّ أدافع عن أرضي، وأرفض أيّ قانون جائر، هل كوني أرفع علم كياني تعتبروه إسقاطكم ؟! ليكن ذلك، كم تفرضون علينا حِصاركم عنوةً ؟ لكننا بكلّ زهوٍ نقتدي بمن سطّر التاريخ أسماءَهم، فنحن من نجيد عزف الحياة كسمفونيةٍ تروق لعازفٍ محترف .

بالرغم من المنع القاتل لزيارة عائلتي و الاضطهاد المستمر، ها نحن نكسر قراراتهم الظالمة وننتصر، كأنّ الرقم ثلاثة له وضعان في الضد في آذار من هذا العام ظلمني كثيراً، والشهر الثالث على

اعتقالي أفرحني قليلاً !

أمي، النظرة الأولى التي قيدتها سلاسلهم لن تفارقني ما دمتُ حيًا،كنت أعدّ الأيام بالساعةِ وكحلمٍ بطيء، أمي شعورٌ غريبٌ لا أجيد وصفه، أراكِ كما لم أركِ من قبل، حُرمت من احتضانك، كم كانت عيوني تتلفظ مجيئك، كم فقدت عبق الياسمين في حديقتنا، وها أنا في لحظةٍ قصيرة كانت فاصلة جسدياً، أشمُّ آثار البيت، وأرى في عيونك وطن مثخنٌ بالجراح .

لكنّ سؤال "مجد" المتكرر:

لماذا تجعل من عينيك سرًا لا يفهمه أحد غيرك، وتنفرد لوحدك كضيفٍ ثقيل أتعبته المدة التي يمكث فيها في منزل الغرباء ؟!

جعلني أكسر ما بداخلي من صمتٍ مُقفل، جعلني أعترف له بعد قلبي بحبكِ، كم أتذوق مرارًا حين أتلفظ هذه الكلمة ؟ لأنكِ لم تدركي يومًا لوعَتها، كنت أرى في وجهك ملامح أمي، كنت أحتقر اليوم الذي حرمني منكِ، كنتِ تعيشين بعروقي كما الحياة، وكنّا نتشابه في بعض الملامح كما يقولون لنا منذ الطفولة، وما زلتِ ! أسرت حُبك في داخلي كما أسرني ذاك العدو، تشبثت ببقاء السر في قلبي لكي لا أفقد نبضك في دمي...

فها أنا اليوم أعترف لمجد ،

ولكلِ من يقرأ كلماتي ...

أعترف بخسارتي ...

أعترف بخذلاني ...

تضحيتي، ألمي المُتكرر!

أنت الآن في مكانٍ يليق بكِ كما تعتقدين !

ترين نفسك بطلة الرواية، وأنا من أخسر المعركة ؟

مراوغتك بحبٍ كأكذوبةٍ سَمجة

ها أنا أومئ بيدي عليها !

تنصلتِ من حياتي إلى الحياة التي رسمتها عيناك ...

واقتضبتِ الطريق الذي سارت عليه أحلامي...

هل تذكرين حين قلت لي : أنّ الأيام الجميلة تأتي فجأة !

أنا اليوم أحلّ لُغز الغموض الذي بادلتني إياه....

رغم أنّني أيقنت خذلانك قبل عام ...

ها هي تُفك لي الشيفْرة التي لم أؤمن بها لحظةً ...

عيشي حياتك الماجِنة !

فأنا أعيش بقلبٍ مثخنٌ بما يحتويه...

وأتضرع بإيماني لله وحده،

وسأبقى كالقمر الناسك ..

كيف للحبّ أن يخذلنا ونحن من اخترناه ؟!

هل لأنّ ملاذ الحياة لم يكتمل بدونه؟ لم ندرك فواجع الأيام المتبقية من العمر، ولا اللحظات القاسية التي يعصرها الفشل في داخلنا !

أحيانًا لا نصدّق الواقع ونعيش الحلم الذي نرجوه، لنصحو فجأةً من تلك الغفلة التي أوقعت بنا في بئرٍ عميق، لكنّ أصعب شيء في هذه الحياة أن تعيش حلمًا لا أحد يشاركك إياه !

رغم إنّك كنت تجزم بين نفسك أنّكم تعيشونه، لتجد أن الأيام كانت تكذب عليك، وتصفع بك !

أن تكون مُغفلاً بمن تُحبّ تلك الكارثة التي تفجع بحياتك، التي تحطّم المسار الذي قادته عيناك، الخيانة التي أخفتها عنك أحاسيسك، الغدر الذي جاءك في وقتٍ لم تكترث له، الألم الذي حلّ بك كوشمٍ لم تؤمن به يومًا وتخاف لعنة الله منه، لكنّ طغيان الماضي رسمه على جسدك، السُم الذي يفسد دمك

كماضٍ سرق منك السعادة التي تنتظرها، المنفى الذي سترحل إليه رغمًا عنك، الوجع الذي ستتركه كحروفٍ مكسورة في روايةٍ قادمة .

هنا تكون مشدوهاً بما تشعر به، تبث أمامك الأحداث كفلمٍ متقطّع تشتّته اللحظات الجميلة، تحاول أن تصغي لجسدك، ولا تفهم شيئًا ! كأنك تمرُ فوق بركانٍ متهيّج بفوضى السنين دون أن تكترث للهيبه.

كلما حدّثت "مجد" عنكِ أكثر وأكثر، السنوات الطويلة التي مرت وعشتها بجوار بيتكِ، سنوات الدراسة، وجع الوطن الذي ولدنا على أكنافه، المناسبات التي كانت تجمعنا في مكانٍ واحد ببعدنا عن الآخرين، الخريف الذي رمى بأوراقنا ما وراء الجدران ، القضية التي تحمل عقولنا وقلوبنا، كنت القريبة واليوم بعيدة عن كلّ شيء يربطك بهذه الأرض، كنت الأمل الذي أصحو عليه كل صباح، السكر الذي يسكن فنجان قهوتي، لكنك لم ترحمي تلك الأيام الجميلة، كسر كبريائك الفارغ كلّ أحلامي، وتركتِ خلفك سرًّا قد شلّ جسدي ...

لم تعتذري ! ولم تبرري لي كأن شيئًا لم يكن !

غريبةٌ أنتِ لم تُخلصي بقلبك للحبّ الذي ذرف كلّ ما يملك، ولم تكترثي ولو قليلاً وذهبتِ بلا قلبٍ، كأنكِ قارئة للغيب وبيدك مفاتيح الحياة جميعها، كم أنتِ مغرورةٌ! لا تدركين معنى الحب ولا تجيدين اختياره !

أنتِ ترحلين إلى بلدٍ لا يشبهك، ربما الآن تشبهينه، تَرينه جميلاً، تخدعك فخامته، أناقته؛ لأنكِ تكرهين فوضى المدينة التي غادرتِها، وتَرينه مُريحاً لأناقتك، تَرين فيه نسيج الحضارات المختلفة، الثقافات التي كنت تشاهديها على التلفاز، اليوم تَرينها بأمّ عينك، تَهربين من الواقع المُرّ الذي كلٌّ منْ على هذه الأرض تذوقه، هل ستجدين السعادة الأبديّة التي نبحث عنها جميعاً ؟! كم أنّ تفكيرك محدود بما تُريدين ! وتطاوعين أحلامك الشيطانيّة .

قد خنتِ العهد الذي كان يجمعنا، الذكريات الحزينة والسعيدة، الواقع الذي مَرّ بنا بكلّ ما كان يحملُ من معاناةٍ وتضحيات، الحصار الذي حرمنا لعدّة أيام من الدِراسة ،من الذهاب إلى المدينة ،من أرضنا ...من كل شيء .

في الوقت الذي كنت أتحدث أنا و"مجد" عنك، قد وبَّخني

كثيرًا ! هل تعلمين لماذا ؟؟ لأنّني لم أخبر أحدًا كم هويت عينيكِ، حتى أمي لم تكن على علم بذلك، لأنّ شَرطك الكاذب قد لدغني في وقتٍ لا أدركه، تذكرين كم كنتِ تقولين لي أن نتحفظ بحبّنا إلى أن نكبُر معاً، إلى اللّحظة التي أنهي بها تعليمي الجامعي، إلى الوقت الذي تروقينه، كم أنتِ مخادعة ! أطلقتِ طعناتِك تلك كالسّهم في قلبي، بقيّ ينزف حتى هذه اللحظة، كم كان كلامك أجوف لا يملؤه الحبّ ولا الإخلاص، ولا يليق بفتاةٍ رقيقةٍ مثلك.

أنا لا أحتمل أن يلومني أحد، لأنّك لم تعترفي بخذلانك، لم تعترفي بالقرار الذي ألهم أحلامك الماجِنة، كنتِ من صدمني، من ضربني بضربةٍ أفقدتني أن أبوح ما بداخلي، بقيت أصارع نفسي، أتضرع إلى الله؛ لأنّه وحده من يعلم حالي، من يصبّرني، من يخرجني من تلك المتَاهة التي رَمت بي في لا شيء...حتى إنّني لم أعترف مَن تكوني ؟؟ ما الصلة التي تربطني بكِ ؟ أسئلة كثيرة ضجّت في مخيّلة "مجد"، لأنّ الأمر لم يحتمل بعد، أشعر بانقباضِ قلبي وأنا أتلفظ اسمك لأنني أريد أن أنسى الاسم الذي أسر في قلبي وأسرني، ها أنتِ انطلقتِ كعصفورٍ إلى السماء التي تريدين أن تظلّلكِ، من أنتِ إذن ؟!

تشبهُني إلى حدٍ سواء، أو كنّا نتشابه في كلّ شيء، الرقيقة التي كنت أرى حنَانها، الهُياميّة التي امتلكت لغتي !

"هُيام" المدلّلة التي استوطنت أحاسيسي وكياني، ها هي تغادر من شرفةِ حياتي بلا استئذان، فكنتِ كقسوة الظلم رغم أنوثتك التي رأيتها بقلبٍ بريء تعيش بداخله الطّيبة، أجدتِ المُراوغة على طبولِ قلبي، وتنصّلتِ من حياتي كوردةٍ تركت أشواكها تخدُش بعمقٍ الأرض برحيلها .

غريبةٌ أنتِ في بلدٍ غريبة مع شخصٍ غريب! اختارته غرابتك كزوجٍ تريدين أن تملكين ما يملك دون أن تمتلكيه، لست الوحيدة من هذا الكوكب ! مِثلك كُثرْ، من يُريْنَ السعادة في المال، في السفر، في الفخامة حسب اعتقادهنّ، من ينحزْنَ وينجرفْنَ إلى المظاهر المبطنة الزائفة، من يرمين بثقلِ الحياة على مَن رسم لهنّ السعادة ..!

زمنٌ غريبٌ تسكنه أناسٌ يرتدون الأقنِعة بمظاهرها الجذّابة، يخفون أحقادهم وأوهامهم ،ويُظهرون الأمنية التي يريدها من يقابلهم، كُثرْ من لا يدرك هؤلاء ! من يفقد توجُّسه مِنهم ،من يغفو عن عواقبِهم الوَخيمة ومستقبلهم الأسمج وخَواء قلوبهم

،ومراوغتهم التي يعرضونها كفلمٍ رومانسيّ، العطف المُلطّخ بطعناتهم ،الخَيبة التي تَبثها عيونهم ...

كَما العمر تَمرّ كلّ لحظةٍ دون أن تكترث لِما مضى، كأنّ داخلك شيءٌ غريب، أو انحصر تفكيرك تبرمًا، وتجد أنّ شيئًا ما أجمَّ لسانك عن الكلام، لم أسترسل في حديثي كما كنت كأن الوقت الذي أتى سطا على كلامي واندثر إلى لا مكان، كلّ ما أصابني، شَلل في باطن عقلي أخذ بي إلى قلقٍ مُستمر، لم ينتابني هذا الشعور من وقتٍ طويل، ولم أذكر أنّ هذه الحالة قد اغتالتني أو مكثت في جسدي يومًا كهذه الأيام ...

أشعر أن الوقت ينتهي وأنا لا أملك الشيء الجميل الذي به أُنهي، رغم الأيام المتباعدة لا شيء يروق لي، والبُعد الذي يفصلني عن عائلتي، والفراغ الذي أحاطني، وكلّ شيء ...!

لم تتكرر لي زيارة واحدة بعد الأولى، كأنّني من صنعت الظُلم لنفسي ! من خيّم في مكانٍ لا يناسبه ! من ترك وراءه ضحية معلقة، لا أحد ينتشلها ! من خَرق عهوده مع من بَايعهم على العهد، من سَلك طريقًا لا نهاية له !

و رغم القوانين الصارمة التي تمنع الزيارة المُتكررة، في اليوم الذي

كنت فيه كمن قلَصتْ نفسه لأول مرةٍ قد شعرت براحةٍ تعجُّ بصدري كهواءٍ جبليّ بارد، فور سماع أحد الأصدقاء وهو "سامي" يرسل لي سلامًا عبر برنامج الأسرى الذي يأتي أسبوعيًا في إحدى الإذاعات الفلسطينيّة المحليّة، أخبرني باشتياقهم لي وطمأنني على أهلي، ورفع من معنوياتي كمن يرفع بشأنِ شخصٍ متفوق، واعتذر لي لتأخّرِ وقت اتّصاله بسبب انشغال الخطوط لكثافة الاتصالات، إضافة إلى منع إدارة السجون من استلام الرسائل المرسلة، وقد أخذني هذا الصوت إلى الأيام التي جمعتني بأصدقاءٍ وثّقتهم الجامعة في ذاكرتي، وجعلتهم لي إخوةً في بيتٍ واحد، وأنا صغيرهم المدلل، الشقيّ، من يكسر مللهم ويرمّم جروحهم بالحكمةِ، وكالعقلِ المُتفتح بما يثق، وكالقلبِ النابض بما يشعر...

"سامي" كان الصديق الذي ترتكز حياتي على صدقِه وصداقته، الإنسان الرخيم الذي يتقبّل تبرُّمي وانطوائي أحيانًا، الذي يستشعر حواسي، الراحة التي تسكن حَواف صبري، الظلّ الذي يرافقني مدار اليوم، الذي عاش معي خيبتي وخذلاني، هل تذكر وقع الألم الذي انتشر في جسدي ؟ الحديث الذي كنّا نتبادله وقت السمر، انتكاساتي وخسارتي وفوّهة عِشقي لمن أُحب، ربما

تنصدم حين تعلم من هي ؟!

صِلة دمي (ابنة عمي) التي باعت عمري بلا ثمنٍ، وتركتني بلا سببٍ، تلك هي الحياة التي تأخذ مِنّا ما نملك وتَرمي بنا بخسارتنا، ما أصعبها من نظريةٍ لم نفهم رُموزها حتى الآن، ولم تُراعِ شَغفنا وتضحياتنا، ولم توثّق تأملاتنا بسلّم أولوياتنا، وقد نتغاضى عن تلك الفوضويّة المُفرطة لنرتّب أفكارنا كما نريد، قد ننجح وأحيانًا نفشل رغمًا عنّا !!

هل بمقدور كلّ شخص مِنّا أن يراوغ حياته بما يشير عليه إصبعه لا بما يحلم ؟!

تلك الحرب التي تخوضها نقطة اللاوعي التي دَلفت إلى حياتنا دون أن نعلم، التي لم يترأسها قائد ليُنهي تلك المَهزلة !

قد أتى تشرين الأول/أكتوبر على عجلٍ دون أن أعلم ما يخبئ لي، بعد يومين تم إخباري من قبل إدارة السجون بأنّه ستنعقد لي محكمة يوم غد، هنا بدأتُ أُصارع الماضي والحاضر، أتخبّط بأفكاري دون تريُّث، وأشعر كمن أردفته المصائب وهو يعيش توجُّسه، كمن يحلم أن ينجال عنه الهمّ ولو ساعة، كم استرأفت نفسي بالهدوء، كنت كالطفل الكائع الذي تركه أهله في مكانٍ لا تسكنه الزوايا،

كأنّ القيد قد لازمني قبل مجيء الغد ...

وقد قَاطعت تلك الهواجس الحادة أصوات الأقفال المحترقة بنيران أحقادهم، تم إبلاغي لمقابلة المحامي، هنا أخبرني كما علمت مسبقًا بأنّ جلسة المحكمة ستُعقد غدًا. إضافة، أنّه حدّثني عن وضع عائلتي وبعض التحيات التي أرسلت لي، وسلمني ظرف مكتوب محكم الإغلاق حسب ما أخبرني بأنّ في داخله رسالة...، ومنعته سياسة الوقت المفروضة من الإجابة على جميع أسئلتي المتداخِلة، ولم أتمكن من معرفة كلّ ما أريد، حيث كان الوقت يسرق اللحظات المهمّة ويسبقنا إلى نظراتٍ بعيدة، تذهب دون أن نشعر....

عدت إلى تلك الغرفة المتحجّرة الجدران من سطوةِ السجّان، أفكر بالغد رغمًا عني وأتسابق مع الأحداث التي أنتظرها وأنتظر مصيري معها، أيقظني "مجد" كعادته من غثياني المتواصل، حدّثني عن تلك الأيام التي عاشها وفي تلك الأثناء يعيش أيضًا هذه اللحظات معي، غرقنا في حوارٍ طويل قسّم اليوم إلى عدة نقاشاتٍ تهمنا، كأنّنا روينا روايةٍ بوقتٍ واحد دون اكتراث، كانت تستوقفني عدّة حكايات كأنّني غريبٌ عن هذه البلاد، لأجد بأنّي لم أُضَحِّ كما يليق بوطنٍ كوطني ...من هنا كان أملي بالغد !

إلى أن بلج الصبح بشمسٍ مخنوقةٍ، تحاول أن تضيء لنا صباحنا من بين القضبان، أن تعطينا بنورها الحياة وتسلب بمغيبها المُعاناة؛ لنعيش كما نحلم لا كما تروق لهم مخططاتهم، قد تعطينا الحياة فرصًا كثيرة في لحظةٍ لا نتوقعها ! وأحيانًا نتمنّى أن تعطينا الفُرصة التي نريدها في الوقت الصَعب، أو في اللحظة ذاتها...

هنا لا ندرك ماذا ستمنحنا الأيام المُقبلة ؟

ونبقى نُصارع المَوت مع الحياة في دوّامةٍ لا نستطيع إيقافها ! مَحكَمة.

مَررت بين المَمَرات وأنا مقيّد اليدين بكلبشاتٍ تعصر يديّ بقوةٍ وعلى جانبي الأيمن جندي، والجانب الأيسر كذلك، إلى جحيمهم الحارق الذي يصبُّ علينا بأحكامهم كما الزيت الحار، اللحظات التي نكره مجيئها، الظُلمة التي تنعكس علينا من عيونهم، لتبقينا في لا نهاية ...!

لا حكم يخلّصني من قهرهم ولا حياة تسكنني لتنجيني !

رُفعت الجَلسة للنطق بالحكم إلى موعدٍ آخر...حيث أُجّلت محكمتي إلى وقتٍ لاحق، لم أنتصر على أحلامي ! ولم أفهم داخلي

المتخبّط بعشوائيةٍ، كأنّني أفقد السيطرة على هواجسي المُبعثرة؛ لأن لا سبب يقنعني بالمكوثِ في هذه العتمة التي نُصبت لي كما عداد الوقت السريع ...

لا شيء يعجبني في هذا المكان !

لم أحظَ بالحديث مع والدتي الحبيبة سوى بضع نظراتٍ خاطفة، حيث كان الغموض على وجهها سيّد الموقف، وتحبس الدموع رغمًا عنها، وأنا أنتفض وجبيني يعرق من شيء لا أفهمه، أسئلة كثيرة كانت تنفعل بها ذاكرتي ....

لماذا أبي لم يأتِ لحضور المحكمة ؟!

وحين كنت أسأل المحامي وقت زيارته لي عن وضعه الصحي كان يكتفي بكلمةٍ واحدة "إنّه بخير ...".

وينتقل بسرعةٍ إلى حديث آخر ويشْتتُني بسرعةٍ أفقدتني القدرة على الإلحاح بسؤالي !

أشعر بأنّ شيئًا ما لا أعلمه وقد أخفوه عنّي، هذه المدة الطويلة التي أبعدتني عن عيون أمي لم تنسيني لغتها غير المحكيّة، هل تذكرين كم قصةٍ أخفيتها عنّي وكنتُ أسترِقُها من عينيكِ، أنا لم أنسَ تلك اللحظات التي درستْها أحاسيسي بعمقٍ، وخلدتُها في

أعماقي...

كيف لأمٍ لا تعلم ما يريده صغيرها وهي من احتضنتْه أحشاؤها!

فكما كنتِ تعرفين ما يجول في تفكيري فأنا أيضًا أشعر بقلبك وعقلك وكل أحاسيسك ...

أنا لا أريد أن أرى الخيبة مرةً أخرى، قد امتطت ثقل الهموم قلبي بما يكفيه ! أريد أن أشعر بما تشعرون، أن لا أنزلق عن حافةٍ لا تشبهنا، أن أكون معكم رغم البُعد، وأن أكون بحضرتكم رغم الغياب.

أحيانًا قد تجتمع عدّة لحظات صعبة في زمنٍ واحد لا يفصلنا عنه سوى بضع سويعات، هنا يدق ناقوس الغفلة أمامنا بصورةٍ لا نريد قسوتها !

ليلة الوداع الأخيرة كأنّها أخبرتني بِبُعدك المفاجئ ونشلت نومي من جسدي، لنودّع تلك الليلة بطريقتنا التي أحاطتها كلماتنا الأخيرة، القصيدة التي بدأتَ أول بيت بها وأنا أرد عليك بما يقابله، الضّحكات الخرافيّة التي شقّت أفواهنا وحتى في حزننا، الماضي الذي سطّرته طفولتنا، والنجاحات التي حُفرت بذاكرتنا، ذلك الزمن الذي كان يوازي ما بين السعادة والألم، النجاح

والفشل، التضحية والخيبة، الأمل المنتظر، اليوم الآتي، المستقبل الذي تقوده أحلامنا، وكلّ شيءٍ قد حضر تلك الليلة وقد زار أنْسَنا ....

لماذا العزل الانفرادي ؟!

تم نقل "مجد" إلى ما هو أشبَه بحجرةٍ، ما يسمى مصطلح "العزل الانفرادي" الذي يشكل انتهاكاً للمادة 76 من اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 م التي منعت من:"النقل الفردي أو الجماعي بالإضافة إلى الترحيل للأفراد من الأراضي المحتلة إلى أراضي القوة المحتلة."

ما أشار إليه هذا المصطلح إبلاغ "مجد" المفاجئ من قبل إدارة السجون بنقله إلى قسم آخر أو سجن آخر، دون إعلامه بسياسة العزل التي أخبرني مسبقاً حين تعرض لها قبل عدّة سنوات، فكانت النهاية؛ الفاصل الزمني بيننا لوقتٍ لا أعلمه...

مرت عدّة أيام كأنّني أشعر بالوحدة ونقص الأكسجين النابلسيّ الذي كان يجدد لي الحياة كلّ يوم، وكأنّ الغياب فُرض علينا و اعتدنا عليه، كنت في تلك الأيام المارة دون شيء أو جدوى، أرتب ذاكرتي للأيام القادِمة، أقرأ أكثر، وأعيش عالم

الروايات مع نجيب محفوظ، وأحداث "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني مع فواجع الماضي وشوارع المدينة، كأنّ الأدب أخذني إلى عالمٍ آخر....وإلى لُغةٍ مُختلفة، وإلى حنينٍ مفقود تَروقه النَفس قبل القلب، إلى بحرٍ مُقيّد بمائِه وأسواره وأحلامه، إلى أن شعرت بشخصٍ آخر مختلف، مطلع، ومتسامح مع نفسي، مُدرك لما أقوم به ...!

وصلت إلى أن أجدت الكتابة أفضل من خربشاتي الجامعيّة، أتسلق سُلّم الحياة رغم البيئة التي تهمّش طموحنا، وكأنني قاصٌ أسردُ ما أقرأ بطلاقةٍ دون أن أتلعثم مع الكلمات، ودون أن يعتريني الخجل، من هنا رأيت أنّ الحياة تعطي لنا الفرصة التي نتجاهلها بحضورِ الضيق، أنْ نكون أبطال الشجاعة التي تفرزها همهمات العقل المُثقف، لماذا نَرمي يأس الماضي المتشقّق بخيبته على لحنِ الحياة التي نعيشها ؟!

هل نملك سرّ المستقبل ؟ وهل يستطيع الحُلم أن يعزف سمفونيّة الذاكرة في الوقت الذي اجتاحته آمالنا ؟

لكنْ كيف سنجعل ما نريده يعانق الطريق الذي تأخذنا إليه خطواتنا ؟!

ربما الشعور الحدسي الداخلي الذي يصور ما سيحدث كشريطٍ دائريّ قد يعطي لنا شقين :أن يتحقق ما نتصوره، أو أن يحدث التخمين الذي لم يؤخذ بالحسبان.

في الساعة الخامسة مساءً، في جوٍ تشرينيّ، ماطر وشديد البُرودة، تسكنه رائحة التراب المُبلل بقطراتِ الماء كما أحنّ إليه في محيط بيتنا، أردت أن أعيد فوضى الأوراق والكتب التي مضت أيامي معها، وبينما كنت أرتّب الكتب وأعصر الأوراق التي خربشتها أقلامي دون تريّث، وقعت عيني على الظرفِ المحكم الذي أعطاني إياه المحامي حين زارني ! فأنا لم أُلق عليه نظرة حتى الآن؛ لأن الفضول قد قتلته الهموم واستوطنته اللامُبالة آنذاك ...

أخذني التفكير إلى فوضى الذاكرة والعبث بما تحتويه، بوقتٍ تجاوز النصف ساعةٍ وأنا أمسك بيدي هذا الظرف دون أن ألقي نظرة خارج محيطه، أتشبث بداخلي كمن يتمسك بماضٍ ضائع، وقتذاك كان كل شيء حولي يتلاشى لم أرَ سوى ورقة بيضاء محمية، وطُرحت أمامي أسئلة غامضة لا أجيد إجابتها، كأُميّ لا أميز الحروف العربية، ماضٍ نحو لا شيء ،...،.....

أُقلب أفكاري لأرصد الهدف...لا استطيع أن أتصور شيئًا لا

يعجبني، لا أريد عودة أوهامه وهواجسه، هل سيكون لي سعادة بعد وقت من الآن أم حزن ماضٍ ؟!

تذكرتك وأنا لا أريد ذكراكِ، كأنّ لخفقان القلب أولّ مرة قد يأتي ذات يوم- لو بعد مدة طويلة- فيعاود هذه البداية التي كانت تمتلئ بجمال المشاعر في وقتها، إلا أنّها أصبحت ماضٍ مُيتم !

هل أنت صاحبة الرسالة المُظلّلة بصفحةٍ بيضاء كنقاء قلبٍ لا يحتويكِ ؟!

" تحية طيبة"

قد يكون حُلمًا إن قرأت عيناك رسالتي تلك وكلماتي المُبعثرة !

كأن شيئًا ما أوصد تفكيري بك فقط، وأغلق الحياة من حولي بمفتاحٍ أشعر بأنك المالك الحقيقي له ! أخشى أحيانًا النظر إليك، لأنّي لم أجد شمسك تضيء ما حولي، كأن نورك تسلطه على جهةٍ تعنيك دون أن تدرك من أنا وبما أعيشه رغمًا عني، من هنا بدأت أتخبط مع ذاتي ومع قلبي الذي يضعف بلحظةٍ لا أدرك أهميتها ....

تذكر كم موقفٍ مرّ مع الوقت :

- كنت أرقبك عن بُعدٍ وقت الدوام، دائمًا أسلط نظري صوبك ، أحاول أن أفهم نظرات عيونك التي لم تكن لمرةٍ قاسية بل غامضة يسكنها أحلامٌ يغطيها الضباب دون أن يسلبها أحد، ونمرُّ وكأنّ خطوةً تفصلنا كلٌّ إلى محاضرته كالثانية !

- لماذا كنت الظل الذي يلاحقني دون أي اهتمامٍ مصوب تجاهي ؟ هل كبرياؤك كان يحتفظ بمشاعرك؛ ربّما يسكنك شيئًا ما ؟ في إحدى الفصول الدراسيّة جَمعنا مشروعٌ كان قد وقع اختيار أستاذ المادة علينا لنتكفل بإنجازه طيلة الفصل، هنا شعرت بسعادةٍ كبيرة تحيطني وتتجلّى في داخلي، حاولت أن أفهم عقلك وأن أفسر الغموض الذي يفرشه انطواؤك، لكنّي لم أفهم شيئًا كأنّك كنت تكتفي معي بالتعامل كزميلةٍ فقط، فكنت أجد تقاربًا بين أفكارنا هذا ما جعل مشروعنا المميز في تلك الفترة من بين المشاريع، إلا أن البعد كان حليفي بالقوة، أنا لم أعترف بشيء لك ، تمسكت بداخلي المتقطّع، وبحدسي الذي جذبك إليّ دون أن أكترث لما سيقع به قلبي مع الوقت ! من تلك النقطة التي غُمست بدموعي بدأت معاناتي وأحتفظ ببضعِ أحلامٍ بسيطة تعايشت معها بعفويةٍ تارة، وخسارة الحلم الأكبر الذي ارتابني تارةً أخرى.

لن أُطيل عليك سأكتفي بما أُجزم عليه أنّك ستَذكره، كأنّ الوقت الذي امتلكته منعني من الاعتراف، فأنا أعترف بوقتٍ ليس لدي، وفي مكانٍ لا يليق بكرامتك ولا شموخك، إنّه الزمن الذي يأخذنا إلى رحلةٍ دون أن يكترث بمخاطرها على أنفسنا، فأوقع بنا في المكان الخطأ !

المكان والزمان هو منْ سيترك لكَ اسمي "

الفصل الثالث

" نابُلس على حافة الحلم "

كَما يُعانق الوردُ ندى الصّباح...

كَما تَرنو القلوب مع خَفقاتِ المَطر...

كَما تُزفّ جيتارة مع أنغامِ وتر !

يفيح عَنبر الحياة مِن جديد...

خَلف شمس الغد !

يلفُّ طائر المساء حول نهاياتٍ كادت تختفي /

وبداياتٍ تُنتظر !

مخيّلات واسعة كالأفق في التحديق !

وأحداث أيام تتردّد في الذاكرة !

قد فقدنا حبّ...وماتتْ قلوب ؟

لكنْ بقينا نحلم بلحظةٍ ما ...وبحياةٍ أخرى

وكانت هناك مقدماتٍ مَخفيّة !

لا نجيد بدايتها...أو ربّما النهاية

كم عشقنا وكنّا تائهين وراءَ صمتٍ قاتل !

وتحتَ ماء مطرٍ أمرضنا ...ورشقتنا إليه عواصف الغفلة !

وتركنا الأمكِنة فارغة بلغةِ الغائبين !

وحلم عودة المنفى ...إلى أرض القِداسة

لم يرغب صمتنا بإعادةِ صمتٍ مضى...

لأنّ صيحاتنا كانت صمتًا بلا أصوات...

كنّا مُبصرين الحزن على أرضِ الهاوية...

دون أن نتجرّد من أخطائِه !

ونفكّر بالموت أو موت قصتنا !

ابتلعتنا السنين فجأةً ؟!

ونحن في السينما

ربما عندما كنّا في قصورٍ ليست لنا !

أو حين كنّا نعزف ونغني بلغةٍ لا نفهمها كإعصارٍ خاطف...

ونركض على محطّاتٍ بلا هدف !

ونتسمّر في أوقاتٍ لا تحالف أحلامنا !

في لا مكان وفي لا شيء حولنا !

فكانت ستارة الأيام تخفي ملامحنا ...عن الحقيقة !

كلٌّ منّا لديه حُلم ! كأنّ لآمالنا قصة نجاح، وأحلامنا قصة أخرى، رغم النجاح الدبلوماسيّ لقيادتنا الفلسطينيّة دوليًا وعام الوحدة الوطنية، إلا أنّ الحرب الدينيّة الاستيطانيّة بحقِ الشعب الفلسطينيّ خصوصًا في الضفّة الغربيّة وتحديدًا في مدينة القدس المُحتلة والاعتداء على أماكنِ العبادة وحرق المساجد من قبل المستوطنين كارثةً أخرى، كأنّ الحرب والسلم يعتري الحياة من حولنا دون تريّث واقتضاب !

كما أنتهي من روايةٍ وابدأ رواية جديدة، تمرّ حياتي كما الدولاب الذي لا يتوقف عن الحركة في كلّ عام، وفي قلبي حكاية ! وقلوبٌ تسكنها حكايات تغار أحيانا نسائم الهواء العليل وقت الصباح من خفقانها الرقيق الهادئ، كلٌّ يطوف في داخله شيء ما، لا أحد يعلم موعد طوفانه كالقمر الخفيّ في موعده حين تُخفيه السُحب، فنعطي الحياة وقتًا، عادةً ما نتخلى عنه لصالح رضانا واستعادة ما تبقّى لنا من حياةٍ تسعدنا أو كما نتمنى !

أحاول أن أتجرد من القلق الذي انتابني خلال الأيام الماضية،

"وطن" تبدو بصحة جيدة، غالبًا ما نتسامر ونلتقي بين الفينة والأخرى؛ ككلّ عام يفتح كانون الثاني أمواج البَرد المُتعطّش لأجسادنا، ونَرتعش رغمًا عن الدفءِ الذي تصنعه مراسمنا الشتائيّة، ونصفّف حبّات البَرَد كما يليق بأحلامِنا المُنتظرة، ونفرح بالشتاءِ كأنّه عنوان زوال الحزن وإخفاء آثاره المُوجعة، وكما قالت لي "وطن":" لعلّ هذا الفصل قاتلٌ لهمومنا، وتاركٌ لرجفاتِ السِنين التي رحلت بعد أن خذلتنا كما تجيد من قوة !". غارقٌ في ماءِ الغيم الرماديّ الذي يصبّ فوق رؤوس الغُرباء طريقًا للنهاية كما ينبغي علينا الحَذر، وكما يليق بوردٍ رحل عنوةً من بلورِ الندى وفضاء مُبلل !

المَسيرات السلميّة ضد جدار الضم والتوسع لم تتوقف كما الحياة، ولكنّ العنف والقتل بحقِ المُتظاهرين لم يَسلم منهم أيضاً!

خلال نهارٍ شاق بالأحداث، كان لي عملٌ لتغطيةِ مسيرة سلميّة، حيث انطلقت مع نهاية وبداية هذا العام الجديد في بلدة بلعين غرب مدينة رام الله، ضد الجدار الذي يبنى في هذه البلدة ،حيث شارك فيها عدد من الشبان والنشطاء الأجانب، إضافة إلى عدد من النساء الناشطات، التي راحت ضحيتها ناشطة فلسطينيّة، حيث استشهدت متأثرة بجراحها بعد يوم من أصابتها بجراح خطيرة،

حينما أطلقت قوات الاحتلال وابل كثيف من الرصاص المطاطي والغاز السام والمسيل للدموع !

إن استشهادها هو تأكيد على مدى العنف والقمع الذي يوجّه ضدّ النشطاء والمشاركين في هذه المسيرات السلمية !

والقتل المتعمد الذي تقوده قناصتهم ضد النّاس العزّل !

اليوم الثاني أيضًا من العام الجديد سطّر في بداية صفحاته استشهاد شاب عشرينيّ برصاص الاحتلال على حاجز الحمرا، في منطقة الأغوار شرق نابلس في الضفة الغربية، بعد أن أطلق عليه جنود الاحتلال النار بشكل كثيف على حاجز الحمرا !!

استشهد نتيجة خوف هذا الجيش المتخثر في عقولهم، الجبن المسيطر على خطواتهم وانتهاكاتهم.....

في كل الحواجز العسكرية الاحتلاليّة المنتشرة في أرجاء الضفة الغربية نقضي نصف النهار تحت ترقباتهم لنا، والتفتيش المستمر والاعتقال أحيانًا، وكأن أيّ حركة عفويّة منّا قد تأخذهم إلى تفكيرهم الأسمج الذي يصدر فورًا إطلاق الرصاص صَوبنا !

ما زلنا ننبض !

ما زالت الأرض تحتضن الشهداء !

وما زال في أرواحنا وطن !

هكذا تبدأ السنة الجديدة في هذه الأرض، نحن نختلف عن العالم أجمع ليس بالأحداث التي تمر بجوارنا !

بل بصبرنا، قوتنا وعظمة الحياة التي نحاول أن نتمسك بطرف خيطها حين يحاولون انتزاعه، نحن أمة لا تشبه الأمم !

نحن مرابطون في أرض الرباط الذي تحلم به بعض الأمَم !

وبعدَ أسبوعٍ احتوته غيومٌ رعديّة بشتاءٍ كانونيّ ! عودة الحياة النابلسيّة بجمالِها وأناقة طُرقاتها، خلال نهارٍ شاق استولى عليه ضغط العمل، وشمس يومٍ أذابت ضباب المدينة الذي يلامس البنايات الشامخة وأشجارها الخضراء، قررنا أن نلتقي أنا وصديقتي الصحفيّة "وطن" في البلدة القديمة؛ لأنّي أعمل حاليًا منذ أشهر في مدينة نابلس، وبعد قضاء باقي اليوم معًا بالتقاطِ الصور لعدّةِ زوايا في المدينة، التي يجسّد كلّ مكانٍ فيها حكاية تاريخيّة وزمانيّة تَروي حضارة الماضي بقصصٍ يحتفظ بها سكّانها الأصليون بروعةِ قلوبهم وذاكرتهم، أخبرتني "وطن":"كم إنّ هواء هذه المدينة يُشعرني براحةٍ تأخذ بروحي في حياةٍ جميلة،

تعجز كلاماتي عن وصفها"، ونفرح سويًا حين أبادلها نفس الشعور.

ونستمر بحديثنا المهنيّ عن الأحداث التي لم تنته، كأنّ حياتنا أصبحت مُعادة من غَصّةِ شرنقة التكرار الذي يخنق الغد إلى ما لا نهاية ! فتردف "وطن" قائلة:"إنّ التوسّع العنصريّ وجدار الضم ما زال حاضرًا، وفي تزايد نحو ما يطمع به استبدادهم الجائر بحقّ الأرض التي سُلبت، وأرواح الشهداء تُزهق بدمٍ بارد !" فأحادثها:"نحن شعبٌ لا يعرف الكَلَل أو الملل، ولا نترك لحياتنا ما يخدش حوافها التي تمس ما نملك، ليبقى عهد أجدادنا حاضرًا في قلوبنا، عامرًا بأجسادنا التي تقاوم، وعقولنا التي تصنع إرادتنا رغمًا عن الاحتلال وعراقيله، ورغمًا عن كلّ حاجزٍ يشقّ طريقنا!".

البعد يُجرّد حياتنا من التجديد، ويُبقي بأوقاتنا في ظلّها المُتكرر بلا هواء نقيّ ربما في إطار الأيام نفسها !

قررت أن أتجرد من الروتين الذي يعتري صدري ويزيد من نبضات القلب أحيانًا، أن أشعر أنّي أتجدد، بطاقتي كما زهر اللّوز وكما الورد الجوريّ، أن أتخلص من ضَجر الشوارع الصاخِبة التي تعجّ

بهواءٍ مُلوث. لوّثته الحياة العصريّة بما تحتويه من تقدّمٍ باسم التكنولوجيا، أن أُعاود طفولتي الشِتائيّة !

أن أسكن وقتي كما أريد لا كما يريد قانون العمل !

أن ألتقي بمن جعلهم الغياب مهمّشين من فرض الالتزام وروح الانضباط !

أن أقرأ كتابًا في أيّ وقت أشاء !

أن أسترق وقتًا أطول من جوِ عائلتي !

قررت أن يكون هذا الشتاء له طابع مُختلف بالنّسبةِ لي، فلذت فرارًا في إجازةٍ أسبوعية في ظلّ الجو العائليّ الذي أحنُّ إليه منذ سنتين، لأسرق لحظات جميلة تمحو كبت السنين الماضية، وتجسّد لي ذكريات مُبعثرة بكلماتها وخبايا الطرقات التي تغطّيها أوراق مُبلّله، وأحلام تتبخر حين نجلس صوب المدفئة لعلّ أقلامنا تخُطّها لنرى نورها التي تروق لها العيون !

" المذكّرة الثانية "

بعد الانتهاء من قراءة الرسالة التي تحتوي بين طيّاتها اعترافات فتاة !

الوقت يجمع ساعات نهاية عام وبداية عام جديد !

أيّ كارثة وقعت بها ؟!

أخذني التفكير إلى لا شيء؛ فأنا غائب عن الوعي في تلك اللحظات التي تمر دون أن أنتبه إلى نفسي !

لا أريد أن أنظر إلى الساعة الآن، لأنّ أحداث الحياة تجعلني أتخبّط بعقلي دون أن أصل إلى طريق، ربما مغلق ! لا يهمْ !

كلما أحاول أن أهرب من الواقع المُؤلم الذي أحاطني، أن أتجرد من إهانته التي تعتريني، يقفز أمامي بشيءٍ ما لا أذكره ولا حتى أريد معرفته، كأنّ الحياة تفرض قوانينها الصَارمة عليّ دون إنذار، دون مقدمات !

مشاعر مُختلطة، مُختلفة لأولّ مرةٍ أشعر بذلك الشعور الغريب الذي يفتعل بجسدي ويرتطم بداخلي المحطّم، أفقد القدرة على الوقوف ! شيء ما شلّ حركتي وزاغ بصري، لم أحتمل تلك الوهم، الوهمْ ؟

هل الموت يزورني ويطوف حول روحي التي تكابد الحياة التي أهانتني وألقتني في دوّامة ألا نهاية ؟!

اختنقت الكلمات في داخلي المُعتم، قد هرستها السنين في فاجعةِ الموت الذي يحوم في أنفاسي المتقطّعة، في شرايين دمي التي تفقد نبضها بين حينٍ وأخرى، يمر شريط حياتي بسرعةٍ لا تجعلني أتذكّر شيء، وتغادر الأحداث كهواءٍ خارق دون صدى صوتٍ ما، فقدت ذاكرتي ! من سيسمع وصيتي الأخيرة ؟ صوتي حبيس أنفاسي الأخيرة، روحي تسبق جسدي المُلطخ بما لا أرى ! ها قد متْ!!

متُّ في مكانٍ لا يليق بشابٍ فلسطينيّ قد اعترته الحياة بمصائبها ! متُّ بعيدًا عن ترابٍ احتضن طفولتي، متُّ بعيدًا كلّ البُعد عن حضن أمي، متُّ دون ترك وصيةٍ تحملَ همّي !

كأنّ موتي فجأةً قد أخذ كرامتي وحقي وأثمن شيء لي في الحياة؛ وهي روحي !

الموت يزور أجسادنا في أيّ لحظةٍ لا نتوقع مجيئها دون اكتراث أحيانًا، حياتنا تعتريها المتاهات بجميع ألوانها التي لا تروق لنا، تمتلكنا الفواجع عنوةً وتُوصد الأبواب التي شَرعتها أحلامنا في

وجه الفرح الذي تلوّنه مشاعرنا !

هنا نجد أنّ الألوان ليس جميعها مُفرحة رغم إنّها تشبه أجمل الأشياء التي تروق لها عيوننا من الطبيعةِ التي خلقها الله بتناغمٍ وإبداع، لكنّ الموت الذي يحيط بأرواحنا هو من يجعل في داخلنا النهاية التي تَقفل تفكيرنا وتَحكم كلماتنا رغمًا عنّا !

سهولٌ خضراء يانعة، جبليّة في بعض المناطق. ألعب، أجنّ، كأنّ هذا العالم أصبح مِلكً لي !

لا أدري !

أتمشّى بين علو ومنخفض، تعرجات الصخور بين التراب، و"هيام" تجمع بكل ما أوتي لها من قوةٍ عدد من شقائق النعمان، وعائلتي مع جدي أسفل التَلة الجبليّة يصنعون الشاي على نار الحطب، على القمة أرى جمال البلاد كما لم أرها من قبل، والسعادة تختلج في صدري !

كان جدي ينادي علينا بصوته الحنون الكرواني لنجتمع مع العائلة حول النار، حيث كان الجو مُشمسًا تتخلّله البرودة وقت المغيب، بألوان الأفق التي نعشق النظر إليها ونستمع وهو يغني لنا من الفلكلور الفلسطينيّ، ونحن نردد خلفه ونغمر بالفرح ...

لكنّ "هيام" اختفت بين الزهور لم تأتِ معي، بقيت تغني وتجمع الورود والأعشاب المُزهرة !

كنت أرقبها من بعيد وهي تتحرك كغزالةٍ صغيرة تتنقل إلى المكان الذي يروق لها دون أيّ اكتراث،عنيدةٌ كما ترغب !

هنا حان وقت المغرب، غرقت الشمس خلف الجبال وأعلنت انتهاء اليوم ببثِ ألوانها وانعكاساتها على السهول الملوّنة، بدأ الجميع بالتجهيز لنغادر هذا المشوار الذي جمعنا به جدي، كلٌّ إلى بيته ...استيقظت؛ لأجد أن الفجر بدأ يتبخر مع برودة المكان ليبدأ يوم جديد بنهاره، ذهبت لأصلي صلاة الفجر قبل شروق شمس الصباح التي لا أعلم ماذا تخبئ لي من ...بعد قراءة "سورة يسّ" شعرت بأنّ هواءً خفيفًا ينعش روحي، وبنبضات قلبي الطبيعيّة !

2011 عام جديد يدخل إلى حياتي دون رضا داخلي، ويستلقي على كتفي بهمومٍ لا أعلمها وأنا أفكر بالمستقبل؛ المستقبل الذي لا أعلم ماذا سيخبئ لي مع الأيام ؟!

الحياة القادمة التي ربما قَاومت الموت الثقيل وتعرّجات الشهور المؤلمة الصادمة، الأماني المخبّئة بعروقِ دمي. أجادل نفسي أحيانا، اصرخ بداخلي أن هناك ثمّةَ شيء يجب أن يخرج !

أفكر في الغموض الذي كسا الأيام الماضيّة والأوقات الحاضرة، شيء غريب أوقد النار في صدري واشتعل ! لم أستطع أن أطفئ طغيانه، كأنّ الروح تحترق دونَ ذنبٍ اقترفته ودونَ معصية ...!

أحاول الخروج من تلك المتاهات المتشتّتة، دون جدوى !

المكان يعمّه الصمت اللاذع وبصمات الحزن المفرَغة على جدرانه، إنّها الساعة العاشرة، يقطن معي إخواني الأسرى في هذه الحجرة المتحجّرة بالألم . كلٌّ منّهم يغوص في شروده، في انتظار حكاية قادمة وقصّة ربّما نجد فيها النهاية، الوضع لا يحتمل !

وقصتي تركت أنفاسها الأخيرة مُعلقة في لا مكان !

واستوطن الوَهم أحلامي، كأيّ يوم مرّ هذا اليوم دون تغيّر أو حتّى أخبارٍ من أرضنا ...!

الشهر ينقضي بسرعةٍ ويسرق أحلامنا دون أن يعيدها كما نريد، يغادرنا على عجلٍ ويرحل بعيدًا بعيدًا، يترك وصيانا ينهشها الزمان بقسوته، ويتحدّى الحبّ الذي يظمأ إلى حنان أمي وعظمة والدي وعائلتي . أرضي التي تنتعش بالشتاء، موسم الكستناء الذي يجمعنا على المدفئة، الحبّ الذي يحمل كلماتنا العائليّة التي تَسرد عبق الماضي وذكريات الطفولة...

أحنّ إلى الجو الذي غادرني دون أن أودّعه !

أضطجعت فوق سريري رقم 2 ويقابلني حائط تكسوه الأسرّة، كأنّني لم أرَ البشر في هذه اللّحظة، سوى إنّني أشعر بأنّي سأبقى حبيس السجن والجدران ولا أعلم ما هو ال...

أنظر إلى سقفٍ لا أرى سماءً، لا أرى طيورًا مهاجرة إلى ما تريد ! فقط حاجز يبعدني عن سماء وطني وقمره المضيء وسط السماء، ونجومه التي كنت دائمًا أحاول أن أحصيها حين كنت طفلاً في الابتدائية، وأخطئ في العد ثم أكرر وأخطئ وأكرر..

أشعر أني أعيش حياة لا تشبه ذكرياتي البتّة، حتّى بأحلامٍ لا أستطيع أن ألخصها ...، كأنّي مختلف عن هذا العالم الذي يسكنه الضباب الملثّم بالغموضِ ويخفي عنّي الحقيقة المُنتظرة !

تَطرق الأيام في سلالم الحنين أوجاع الماضي ولفحات العمر المتقطّعة بنغزاتها، كلّ في طريق لا يريده، فقط تفرضه الأوراق المتناثرة من بعثرات الزمان، كأن الحنين اندثر صوب لا شيء !

وذاكرتي التي كنت أدوّن فيها رواياتي الجميلة أصبحت مُقفلةْ!

رغم أنّي أحاول أن ألهو نفسي بالحديث مع "سعيد" و"أحمد" و"كرم" و...، إلى أن وجدت أني ما زلت أقبع في دوّامة التفكير ألا

نهائية ...، ولا أستطيع أن أغوص في أعماق تفكيرهم ألا منتهاه أيضًا ! وهم بالتأكيد لا يعلمون ما يجول في عقلي ولا يرون الصراع الداخليّ الذي أبغضه أحيانًا .

فيمرّ وقت نشعر به جميعًا أن ثمّةَ شيء ما قد أزاح عن نظرنا الحزن ! وعطف عليّنا بشروده الموسيقيّ ونحن نُرغِم أنفسنا أحيانًا على مضي سعادة لا شعوريّة نستمدها من طاقة الضحك التي تقودها كلماتنا المُتصادمة ...!

يوم السبت الساعة العاشرة صباحًا، اليوم بتاريخه يوم اعتقالي قبل سنة، فأنا مقيّد منذ عام من حرية طموحي ووطني ومن ....!!

أشعر بحديثٍ طويل ينتفض في داخلي، ينبغي عليّ أن أدفعه كموجٍ ساحق كي أتخلص من الضغط النفسي الذي يلمني من كلا الجهات كما البرد الملتصق على الزجاج، بدأت الحديث الذي يصارعني بهواجسه مع صديقي في الغرفة "كرم" حين قال لي :

- صحيح لم تحدّثني عن سبب اعتقالك ... حيث غالبًا أراك دائم الشرود لذا كنت أخشى أن ...اليوم أرى أنك مستعد للحديث عن كلّ شيء، صحيح ؟

كأنّه الشخص الوحيد الذي أجاد لغة عيوني التي ترغب أن تتحدّث لمن يدرك معنى الألم...قلت له :

- نعم، إذن اتفقنا سأحدثك ...اعتقلت حين كنت مشاركًا في إحدى المسيرات السلميّة مع عدد من الطلاب، والناشطين إضافة للناشطات والمتضامنين الأجانب، ضدّ الاستيطان وجدار الضّم في قرية النبي صالح ...

قاطعني قائلا وهو يبدّل جلسته مستغربًا :

- المسيرة إذن سلميّة، لماذا اعتقلت ...؟!

- المُصيبة ليست بالاعتقال، إنّما بالاعتداء على المشاركين فور وصولهم وتحطيم كاميرات الصحفيين ومنعهم من نقل الحدث، إطلاق قنابل الغاز بكثافة صوبنا ...

- إذن ماذا حصل لك وقتذاك ؟

- كنت مع عدد من أصدقائي من عدّة جامعات، نحمل شعارات كتبت عليها "لا للاستيطان !" و"النبي صالح تنتفض ضد جدار الضم..."....

- تابع !

- نعم ، إضافة إلى أنّه تعرض صديقي "سامر" للإصابة جراء إطلاق الرصاص المطاطي، في تلك اللحظة قد تفجّر الغضب بداخلي، حين حاولت أنا وعدد من الشباب إسعافه وإيصاله سيارة الإسعاف بسبب منعها من الوصول إليه على الفور، فهاموا باعتقالنا بالقوة !

- هذه السياسة لم تنته من قبلهم، الاستبداد مسارهم !

- بالتأكيد، من تلك اللّحظة بدأ التحقيق الصارم الذي يفرضونه بأسئلتهم التي لا إجابة لها !

- لكنْ، هل أهلك كانوا على علم بخروجك من المنزل في تلك الأثناء؟

- فقط أمي من أخبرتها بذهابِ إلى المسيرة في حين ممانعتها إيايّ، وأيضًا كان لديّ امتحانات في الجامعة يوم السبت، وإضافة إلى زفاف ابنة عمي "هُيام" !

- يبدو، هناك شيء غامض في حديثك ...إذن لماذا ذهبت ؟!

- لأنّ وجودي في القرية في هذا اليوم سيكون نهايتي، لكنّي اخترت النهاية التي لا نهاية لها ...!!

- لا أفهمك...كيف ؟

- الحقيقة دائمًا ما كنت أشارك في تلك المسيرات، لكنّ هذه المرة فَرضت على نفسي الذهاب رغمًا عن ظروفي وبإرادتي...

- لماذا....هل ممكن أن نرمي بأنفسنا في النار ؟

- ظروفنا هي من تتحكم بنا أحيانًا أو ربّما لا نجيد الاختيار، لذلك نقع في الفشل ...

- آآآه....للآن لم أصل إلى نتيجة منك، أشعر أني ضعت معك في لا نهاية !

- "كرم" دعني أحدّثك ...

- تفضل .

- كنت مغرمًا منذ الطفولة بابنة عمي "هيام" وهي كذلك ...عشنا أجمل أيام العمر في الدراسة والمناسبات الوطنية والأعياد، كانت حياتنا لها نكهة خاصة يكسوها الحبّ والأمان والأمل. دائمًا ما كنّا نسمع منذ الصغر بأنّنا سنغدو خطيبان، ووعدتها بالزواج بعد إنهاء دراستي الجامعية، ووافقت على ذلك برضاها، إذ يأتي اليوم الذي يتقدم لها شابٌ يعمل في "دبي"، وتوافق على هذا الزواج ! وتبيع الحبّ بأرخصِ ثمنٍ وتسحق أحلامنا...هنا بدأت

الصدمة تخرق كياني وتخذلني أحلامي، لأجد نفسي في هذه النهاية الغامضة أحترق !

- قصتك مؤلمة يا صديقي... لكنْ هذه فجائع الدنيا المفرطة تغمر طرقاتنا وتندثر!

- الصعب ليس في مواجهة المشكلة ! الأصعب كيف ستواجه ذاتك وحدسك الذي يبني في داخلك الثِقة، إذ فجأة تتحطّم الآمال أمام عينك بثانيةٍ ، كما الحياة التي يسحقها الموت !

- أحيانًا ثقتك الزائدة بالأشخاص المقربين منك، خاصة من جعلهم قلبك القمة على رأس أولوياتك؛ قد ترغمك على دفع ثمن حياتك كلّها رغمًا عنك !

كان عليّ في تلك اللحظات أن أبدّل الحديث الذي لا يطاوعني ولا يجدي لي بثمن !

هنا اصطنعت موضوعًا يناسبنا الاثنين، وطلبت منه أن يرسم كلّ منّا صورة محمود درويش ليختار زملاؤنا الأفضل من هاتين الرسمتين، فوافق "كرم" على التحدّي...إلى أن بدأنا الرسم باستخدامِ قلم رصاص، حيث كنّا نأخذ الصورة من كتاب شعر لمحمود درويش بعنوان "لا تعتذر عمّا فعلت !".

عندما تعصر تفكيرك بالموضوع الذي تعطيه أهمية بالنسبة لبقيّة الهلوسات التي تسبح في مخيلتك، تجد نفسك في اللّحظة الصادقة التي اخترتها بناء على اكتساب الثِقة والاعتداد بالنفس.

وأحيانًا تضع نفسك في شيء لا تجيده أو لا تمارسه كالمعتاد، لكنْ عندما تكون فكرة "أنا أستطيع" حاضرة أمام عينيك ،وتحطّم الجانب الأخر الذي يراودك بفكرة "لا أستطيع"، رغم اختيارك العشوائيّ لذلك الشيء لكي تهرب من حوارٍ يغضبك، ستجد ذاتك، سيثمر ما تؤمن به ولو بنسبةٍ متفاوتة من الهدف !

إن لتخصصي في مجال علم النفس خلال الأربع سنوات من الآن، قد أخذني إلى الوعي الذي سرعان ما تداركته وجعلت من نقطة الهدف التي تخيلتها أمامي، هي محور الوصول نحو ما اتخذته ببضعِ ثوانٍ قليلة، كأنّي تخطّيت مراحل من حياتي بسرعةٍ ما؛ فوجدت أنّي قادر ولست كما كنت أشعر بداخلي سابقًا ...!

هل لديّ القدرة على قراءة إيماءات "كرم" وتحديد صراعه الداخلي ؟!

ربما أستطيع، فوجدت أنّ ما حلّلته عيناي كان كفيلاً بأني

سأسمع منه ما توصلت إليه من تحليلٍ اختطفته من الوقت ما بين حينٍ وآخر !

انتهيت من الرسم قبل "كرم" بربعِ ساعة، جعلتني استرجع ما يحتويه عقلي الباطن من ورشاتِ دراسة لغة الجسد وقراءة الأفكار عن طريق الإيماءات والإيحاءات والرموز . كنت أنتظر وأنا أشعر بثقة النجاح من روحٍ تخطّت مرحلة الدّمار الداخلي وصراعه، بعد عناءٍ شاق يبدو على وجه "كرم" :

- انتهيت أيها الذكيّ...لقد انتصرت عليّ !

قلت له وأنا أنظر إلى رسمته بتمعن :

- إنها مجرد تجربة أولى لكلّ منّا...لذا وضعت في داخلي قبل البدء الشعور ببصيصِ أمل قادم !

- أنا اكتفيت بأني لا أستطيع...لكنْ سأحاول !

- أنت لم تثبت لذاتك القدرة، فقط وضعت شرطين غير منسجمين ...

- "محمد" علينا أن نستمع إلى قرار اللجنة ...لتقرر ؟

قبل اختيار الرسمة الأفضل ...كنت واثقاً من رسمتي بقوة، وأعلم أنّها أول تجربة للرسم لي، فقط كنت أرسم في مرحلة

دراستي المدرسيّة، فقررت اللجنة بناء على الدّقة وبُعد المسافات بين الخطوط، وإبراز ملامح الوجه بأنّ رسمتي الأفضل؛ لأجد بعد ذلك بأنّ الحياة لا تسير بدون إرادة، لأنّ الإرادة مفتاح النجاة من الفشل !

فربتّ على كتفِ "كرم" وقلت له برقةٍ :

- أنا لم أكابر عليك بهذه الرسمة، فقط وضعت لحياتي خطوة بقرارٍ سريع لأنطلق نحو مرادي، والطريق الذي سيجعلني اتحدا الهواجس المتثاقلة ...
- أشعر بسعادة كبيرة يا صديقي، لأنّي أنتظر هذا اليوم الذي أراك فيه وأنت تقطف ورود الأمل لتزين مكانك ...

لكلِ إنسانٍ حياةٌ خاصة، هي أحداث يحتفظ بها في داخله، لا يطلب من الآخرين مشاركته همّه؛ لأنّه يستنتج من وجوههم ما يكفيهم همّ الدنيا بأكملِه، كأن علينا أن نقف في تلك النقطة الساخنة التي يصعب علينا الاقتراب منها، لنحاول أن نتجرد من الإطارات التي تحيطنا، وتقيّد أحاديثنا في بعض الوقت؛ فالطريق الضيق أحيانًا يتسع لأكثر من شخص رغم تعرجاته اللامنتهاه، فقط في حال كانت إرادتنا هي الهدف !

فبمجرد التفكير بالشخص المقابل عن حالة الانغلاق التي تحيطه، قد تجد أيضًا أن الآخر يستطرد محدّثًا نفسه عن ما يقابله أيضًا ...تلك الحالات التي تتضارب أحيانًا في علم النفس وتفسرها لغة الجسد ...حتّى لغة العيون المُتسائلة !

كثير من الأفكار المتلبّدة قد تتطلب شخصًا ذا قدرة على سحب القدرات من فوّهة العقل الممتلئ، أو من الماضي الكثيف ببراعته، أما الاختلاف في سلوك هذا العقل يكمن في معرفة الشخص بنظرته للحياة حسب المبدأ الصحيح وتجاربه، أحيانًا حسب خبرته المعرفيّة أو تجربته العمليّة في الواقع .

فالرؤية الحقيقية التي يضعها كل شخص منّا، ناتجة عن عمق النظر والتطلع الواسع في التجربة الحياتيّة، وما يريد من تجارب ناجحة في المستقبل !

دائمًا ضعْ لنفسك بعد أن تجد الرؤية التي تمثلها مكنوناتك، الرسالة التي ستفتح أوراق تابعة لتلك السطور التي احتوتها رؤاك، وانتقِ بخفةٍ تفاصيل الحياة التي تهمك وتطّلع عليها باستمرار؛ لتصل إلى ما تريد أن توصله للآخرين بالصورة التي ستجعلهم يرون حياتهم الصحيحة كما ينبغي دون فقد الثقة،

واللاشيء في الحياة !

استمر بتدوين جميع رسائلك التي دائمًا تظلّل خطاك، ولا تقفل أيّ فكرة قد تجدها صعبة المنال؛ لأنّ هدفك المنتظر هو من يرمّم المنحدرات بطريقٍ مستقيم، تجد فيه المسير المريح دون عوائق مفاجئة .

بالرغم من ذلك، ينبغي عليك أن تحدد لحياتك الغايات التي من المفترض عليك تطبيقها، وأن تجعلها سلّم أولوياتك بالترتيب الذي يروق لك، وفي الوقت الذي تجد فيه ما يسعدك، ويبث في داخلك شيئًا من الراحة المُطلقة دون تزييف أحيانًا من المحيط من حولك، فقط يلزمك النظرة المتحكّمة من قبلك، لترى ما تحب أن تراه !

الغايات بعد التعايش معها تصبح وسم كبير بالنسبة لك، وتقودها نحو الاطلاع على الأهداف التي استنتجتها آمالك نحو الهدف الأوّلي الذي يفجر لك مستقبلاً من الأهداف التي تبني تطلعاتك الحاضرة .

بعد ذلك، تجد أنّك وجدت ما يحيط بالنقطة التي رسمتها أحلامك، وهي الألوان التي ترتاح لها عيناك وكأنّ النجاح يفرش

لك باقات من الزهور ممهداً الطريق التي تسير عليها الرؤى الحقيقيّة كما تمنيت، وتقطف من هنا وردة تعب السنين الطويلة من المكان الذي احتضن طموحك ونجاحك .

كأن مفتاح النجاح الحقيقيّ وامتلاك الحلم بكافة حوافه، سيملكه من يتحدّى الصراع الداخلي قبل الهواجس التي تعترينا، فيلزمنا أن نتحرر من القيود التي تربطها معالم اليأس في تفكيرنا، لنجد المحاة السحرية التي تمسح آثار الكبت النفسيّ، وتمحو بقايا الخسارة التي تستوطن خلايا أجسامنا وتعبث في حياتنا دون تحكّم !

ما يلزمنا هو وضع إستراتيجيّة التفكير في قالب الثقة بالله عزّوجل أولاً، ثم الثقة بالنفس التي تصقلها قوة الإيمان الحقيقية بالله سبحانه وتعالى، هنا وجدت أنّ الصراع الذي كان يحيطني قد انتزعته بخفةٍ لم تزعجني برهة. فقط، احتاج إلى إعادة ترتيب حياتي كما يناسب إيقاع الوقت الذي تبقّى لي من حياة ! لم يهمنِ ما مررت به كأنّ عليّ الآن هو أن أرمم حاضري لأجد مستقبلي المنتظر...وأرتّب أوراقي المندثرة في لا مكان دون أيّ تنصيصٍ يغلق نصوصي، أن أعِد المنفى إلى الأرض التي اغتسلت من دموع الأمهات، وأن أبني السنين المتبقيّة !

لكنّ ماضينا كفلسطينيّين بعملقةِ تضحياته وثوراته رغم الألم ! لم يترك لنا سوى قوة الإرادة التي تنبع في عروقنا بعنفوان، فكان عليّ أن أكتشف، من هو "كرم" الذي تختلط أحاسيسه بعمق الوطن ؟

اعتقل "كرم" خلال معركة مخيم جنين التي دارت في أزقّة المخيم خلال فترة الانتفاضة الثانية منذ (1 نيسان/ أبريل 2002 - 15 نيسان/ أبريل 2002) بين المقاومة الفلسطينية وقوات الاحتلال واستمرت عملية الاجتياح خمسة عشر يومًا، ويقع مخيم جنين غربيّ مدينة جنين، ويعتبر ثاني أكبر مخيم في الضفة الغربية، منذ تسعة أعوام والحلم والوطن يخترقان أحاسيسه، ينتابه شعور الحرية، لم يجعل لليأس منفذًا إلى جسده، أغلق القهر المحبط، وأوقد في ذاته روح الاستمرار، وحمل القضية في جفونه الساهرة !

كان وطنًا في عيون رفاقه الذين بللت دماؤهم ورود الأرض ، لتزهر

جيل الغد !

هذا ما وجدته في عمق الحروف التي خطتّها أنامل رفاقه في

رسائله الكثيرة منذ سنوات، والمذكرات المختلطة بالحبّ والأمل ، كأن عليّ أن أجد سرّ السعادة الحقيقية التي تتجلى في الكلمات وتنبثق من الأعماق !

فما وجدته أنّ مفهوم السعادة الحقيقية لا يرتبط بالمكان، فقط يتخلّله الزمان الحقيقيّ بما يحمله من حبّ واحترام، وتضحيات كُثر و روح نقيّة كالبلور، لكنّ حالنا اليوم أصبح مختلفاً نجعله يتناغم مع أمورٍ لا نجيد فهمها، أو حتى لا تمسّ كياننا بأيّة صلة!

دائمًا ما نربط الأحداث بالمكان، لا ننظر إلى ما هو أسمى لمستوى النظر ! فقط نتشبث بمعتقداتٍ تقليدية لا يوافقه المنطق أحيانًا، ولا يجعل منه حقيقة !

إدراكنا كأشخاص ملمّين بعلم النفس، يبني لنا الحياة الصحيحة التي تتطلب أفكارنا المدروسة بإلمام، وبتطلعاتٍ مُدركة على النحو الذي يجعل لنا ذلك الكيان الذي تحتاجه أنفسنا لتنال الاطمئنان.

ذات يوم مقلق ، تم إخباري من إدارة السجون عن موعد المحكمة التي لم أعطِ لها أيّ اهتمام منذ وقت !

فقط يلزمني الانتظار الذي فقدت فيه علامات التوتر ! أو حتّى

ارتباكي المتشتّت، كأنّي لست من أتحدّث عن نفسي، غدوت مختلف عن داخلي الماضي، أجد بأنّي شخص آخر ...يشعر بلا شيء ربما يتحكم بحياته الباقية كيف يشاء دون ملل أو حتى دون مُباغتة !

أنشئ مستقبلي المنتظر بمساراته كسلّة القش التي تخيطها فتاة بعمر الورد !

هنا كان عليّ أن أمرّ مع الأيام بخطواتٍ متقنة لا يخدشها الغبار ولا العوائق، مررت مع الهدب الذي رَسمته عيناي ...سرت صوب الأمل، كنت الطفل الذي لا يخشى أحدًا ويفعل ما يعجبه !

كأنّ داخلي غسلته الحياة التي أشعر بها من دنسِ الماضي الملطّخ بشوائبه المغبرّة ومن علائق الزمن المرّ!

ومن وشوشات الأحزان المفاجئة التي كانت تصعق خيالاتنا العفويّة، ومن ضربات الألم التي كانت تحلّ علينا عدّة سنوات !

ومن الخذلان الذي وقف في جوقةِ القلب وارتطم ...!

ومن أسى الحبّ الذي لم يعرف للتضحيةِ الغزيرةِ أيّة مكان !

الفصل الرابع

''وجدت الأمل المنتظر ''

عندما يأتي المَساء

تَتقارب قلوب النّاس في الحَنين !

منهم مَن يحلم بعودةِ الأسير.

ومنهم مَن يلوّح بقلبه للقاءِ مَن يُحب...

لكنّ حواجز الظُلم تشيّك الحِصار أمَامهم...

ولا شيء يُمهد لهم الطريق !

منهم من يقول :

"متى نرجع إلى أرضِ الحكاية !

ربما نجد مَن قَذفهم الحِصار الشريد أحياءً أو أمواتًا..."

منهم مَن يفكّر في الغد،

مَن يودّع النّهار بأملٍ قَريب،

منهم مَن يرى السَحاب يركض في السماءِ؛ فيتابع تطلّعاته نحوَه!

منهم مَن يرى شمسَ الغياب معصّبة الجَبين !

منهم من يتوّج بقلبه عبرةً للأجيال...

الكلّ يَحلم ...ويأتي الحُلم !

لكنّ السؤال :

إلى أين سنذهب بأحلامِنا ؟

الطّفولة والعُروبة ضَائعتان بينَ أيدينا !

فقط تبقّى الظُلم الذي يَسطو على عباراتِنا !

أين غَاياتنا ؟

التي هناك مَن يحاول أن يَقتلها!

ونحنُ حائرون بأحلامِنا !

الحُلم يتجدّد كالربيع، الأرضُ خضراءُ والزهوُر لآلئُ على بُعد مسافاتٍ هندّسيّة بين السهول ! والشمسُ هادئةٌ بشعاعها المظلّل كظلالٍ قرمزيّة وقت الغروب، ولا أحد يملّ هذه الطبيعة الخلاّبة، في هذا الوقت قد نجد سعادتنا التي تستمدّها أعيننا من تلك

المناظر المُشرقة بألوانها، رغم الجدار الذي يفصل السَوسنة عن شقائق النُعمان والأحلام المبخرة التي تجوب هذه الأوطان المشتّتة!

حياتنا تحيا رغمًا عن كلّ شيء، وآمالنا كشجرةٍ هدباء، السنين لم تطاوعنا الحديث! فقط كانت كفيلة بجعل قلوبنا هي من تتقدم بحملِ عروبتنا بسمو على منصّاتِ الحياة التي تنتصب في عقولنا !

فلكلّ بدايةٍ نهاية تفتعل بأحداثها، تم تحديد محكمة "محمد" بعد مرور عامٍ وشهر من اعتقاله، هذه المرة كانت مُختلفة بتفاصيلها ربما بأحداثٍ غير متوقّعة، أو بنتيجةٍ ما !

الحياة قد تأخذنا إلى محطاتٍ نشعر فيها بالسعادة أو الراحة ونتعايش تفاصيلها ونرمي همومنا جانبًا، أو إلى فواجع الزمن المرّ دون اكتراث، فقط دومًا يتعيّن علينا تقبّل كلّ ما يحيط بنا في نقطة الحياة.

خلال الشهور الثلاثة الماضية تعرض "أبو محمد" لوعكةٍ صحيّة مفاجئة مكث خلالها حوالي شهرين في المشفى، وقد تغيّب عن عمله في التدريس خلال هذه المدّة، إضافة إلى إخفاء الأمر عن ابنه "محمد"، إلا أنّ هذه المدّة كانت تحتمل نوعًا من التوتّر والشرود

بالنسبةِ ل "محمد"، والغموض الذي يعتري إدارة السجن وأقسامه وانقضاء عام على اعتقاله، كلّ شيء كان كفيلاً بخلق نوع من الخوف والتفكير المستمر في حياته، ونحو أهله خاصةً.

لكنّه كان جبّارًا مقاومًا لأسى الظروف التي يمسك بطرفِ

خيطها لإصلاح أعطاله، ومشاعره مختلطة، والحنين يأسره !

الأم يملؤها الصبر وتتشرب آلامِه، الغياب الذي يبعدها عن قرّة عينها، ومرض الزوج الأب الذي يبني أشرعة الحياة لأولاده، الهموم الزائدة كانت كابوسًا يتكرّر في منامها، يشرع الأحداث في أيّامها، لكنّها الأم الوطن الجريح الذي يقاوم ويقاوم...

الزيارات باتت ممنوعة، لكنّ معرفتها بموعد المحكمة الجديد، جدد الأمل في قلبها، تلفّظت اسمه وهي تنتظر اليوم الذي تُسمِعه صَوتها الحنون المُتعب. ما زالت تنتظر أن ترى النور الذي حرمها الاحتلال من شعاعه الساطع كشمسِ الربيع، ترى ظِلّه يفرش البيت بالورد، وتتذكّر طفولته وترجع مع الزمن إلى الأيام الورديّة التي كانت تمتزج بالحب والحنان .

انقضى هذا الشهر على عجلٍ، وهو يحمل في أثنائه المفاجآت التي قد تسعدهم، أو تكون لهم كالخيبة التي لا تحتمل !

الحياة ما زالت متواصلة تقدّم لنا الشمس والقمر وغياب المنتظر، لكن الأحلام تتطاير إلى السماء وتلتصق بالدعاء، لعلّ الله يستجيب الأماني ويكتب لنا ما نتمنى، لم نفقد تلك الإيمانيات التي تُصلى في صدورنا، المُتراصة في نبض الوجود ...

نمرّ مع اللّحظات ونتابع الأحداث، في كلّ يوم يحدث ما لا نتوقع، ونرضى بتلك الساعات القليلة المتبقّية، لعلّنا نجد الساعة التي لا تخيب أمالنا ! ويستمر العمر مع تلك السويعات التي قد تكون حليفةً لنا !

كما يستمر التاريخ بتدوين ما يحصل على هذه الأرض، فينثر الحروف في جوف الزمن القادم، ويتابع مع أرقام الشهور وأسمائها، وفي كلّ يوم تُخلق قصيدة وتُسجّل أُغنية، والوطن ينبض بكلماتنا، طالما أنّ الحُلم مستمر وقلوبنا تنبض ...

على حافةِ الطرقات التي يفصلها الجدار، تُلون الكلمات بريشةِ الأطفال، بأقلام الطلاب، بالحريّة التي ترسمها العيون وتخطّها الظِلال، بعكّازةِ أجدادنا مَن هم شموخ الوطن وتراثه الباقي، رغم أنّ الجنود يقبضون على بنادقهم في انتباه، وتجوالهم لا ينقطع . كلّ هذا المشهد الرهيف يعطي صورة حقيقيّة عن الوطن !

الساعات القليلة انقضت، واللّحظة الغامضة اقتربت وما زالت عائلة "محمد" تتوعد القرار الصعب الذي لا يملكون منّه أيّ قوة !

القلوب تَرتجف وتَتخاصم مع النّفس تارة، وتبعد إلى الماضي بتفاصيله تارةً أخرى، من هنا بدأت القضيّة تتالى بالتّسلسل الزمنيّ القصير ليبدأ موعد النطق بالحكم ...

"شريط الذاكرة مرّ أمامي كشاشةِ عرضٍ لا نهاية لها، وأنا أتلفّظ بالاستغفار بمناجاة الله، بنيل رضاه، عطفه، رحمته، وعيناي لا تفارق عيون أُمي التي يتخلّلها بريق الدموع المُحتبسة بصمت !

أحاول أن أتجرّد الخوف من المستقبل الذي سينكشف في تلك اللّحظات القليلة المعصّبة الجبين بشدةٍ قاسية !

أحاول أنّ أبتعد عن هذا العالم الحبيس بظلمِه المعتم الأبواب، كأنّي ضائع في سراديبَ مُغلقة بلا ضوء، وتفتح اللّحظات الماضية لي صورها التي مزقتها قناعتي، إلا أنّي لا أتمالك تلك الأحداث التي اخترقت حياتي بلا استئذان، وتأتي إليّ كظلّ خفيّ لا يراه الحاضرون في وقتٍ عَصيب كنتِ حاضرة في مخيلتي رغمًا عن غدركِ وخذلانك...كلّ هذا في ثوانٍ قصيرة والمحكمة تناقش

المحامي الذي يتولى ملفاتي بغضبٍ والحكم مطبوعًا على أوراقهم دون أن نعلم ما يخبئ لنا هذا اليوم، فقط يلزمنا الانتظار !

وأنا أنتظر !

لم يذهب الأمل ...

ولم يغادرنا الحبّ، وتلتقي القلوب البعيدة بلحظةٍ قصيرة؛ تبني الحياة من جديد !

كانت هناك حكايات، وأصبحت هناك قصّة حاضرة !

غادرت أحزان، وتقدّمت طموحٌ خالدة، تعانقت أجساد الحنين بدموعِ الفرح وامتزجت طفولة الماضي بعنفوانِ السعادة، كأن هذا اليوم غدت تغارُ منه العصافير الطليقة، وتخضرّ الطبيعة بألوانها المُزخرفة، لتعلن أن هناك ستبدأ حياة جديدة !

فُك القيد، فكّت الآلام الحَبيسة في الصدور المُلتهبة بنيرانِ الفراق، الغامضة بقوانينِ السجّان، المُعصّبة بقطعةِ قماشٍ مُلوث قد عبثت به أيديهم !"

تحرّر الانفراد ، في حين هناك آلاف من الذين يقبعون في ظُلماتِ السجن الموحِشة، شمّ رائحة تراب الأرض، استنشق هواء بلاده الذي تشتاق له العيون، تطايرت أحلامه في سماءٍ بلا حدود، امتلك

حرّيته التي كانت مكبوتة منذ عامٍ تقريبًا، أصبحت الأيام تمرّ معه كما يريد وينتقي أوقاته بعنايةٍ، يستيقظ متى يشاء وينام في الوقت الذي يروق له، يشرب قهوته في الشُرفة المُطلة على حديقة بيتهم، خلف ظِلال أوراق العنب، وذكريات السنين الماضية بحلاوتها، وعبق الياسمين المُندثر على تراب الأرض التي احتضنته!

فكان الثاني عشر من أيار/مايو يوم الحرية، يوم الحُلم المنتظر والساعة الطليقة نحو الأمل! الحكاية التي عبقت ببريقِ أمانيها على مدار عامٍ وأكثر، لتأتي هذه اللحظة التي أشرقت مع شمس صباح هذا اليوم، لتتفتح حياة قد ذَبُلت من الخيبة !

رغم الاستقبال الكبير بحشوده، إلا أن تفكير "محمد" بوالده كان طيلة هذه الفترة مُشتّت، وينتابه أسئلة كثيرة. حيث لاحظ على ملامح والده بقايا علامات المرض، هذا ما جعله يشعر أنّ هناك شيئًا لا يعرفه، مخبأ عنّه؟ إذ إنّ والده ما زال يمارس عمله بشكلٍ طبيعيّ، ويتحدّثا في أغلب الأوقات كما كانا قبل اعتقاله!

أجزم "محمد" على أن حدسه لم يكذّبه، فأصرّ على أنْ يأخذ من أمه ما تخفيه العيون، فتوجّه إليّها في حديقة البيت، حين كانت

تسقي النعناع و طلب منها أنّه يرغب بالحديث معها قليلاً حول موضوعٍ مهم، أثار فضولها وانجذابها بتغيّر ملامح وجهها فجأة . فباشر بحديثه حين جلسا تحت شجرة ورق العنب، استرسلت قائلةً:

- حالنا لم يكن يعلم به سوى الله في تلك الأيام العصيبة التي مرت بنا، وأنت تعلم أنّك الابن الوحيد، المدلّل وهذه الفاجعة كانت صدمة بالنسبة لنا! فمرّت فترة على والدك في المشفى والحمد لله لقد تخطى هذه المِحنة بخير ...

- لكن، لماذا لم تخبروني ؟!

- لكي تبقى بقوتك، وتستمر بصمودك وتنال الحرية بإصرار وعزيمة .

- لكن لا زال أبي مُرهق من المرض...

- الزعل يا أبني، ماذا يفعل بالإنسان ؟

- أبي ما زال مريض، صحيح يا أمي ؟

- نعم، معه مرض السكر...

استمر حديثهما قرابة ساعة تقريبًا، كأنّ الحياة تخبئ لنا أسرارها فترة طويلة، وتكتشفُ لنا بساعةٍ واحدة، هكذا يمرّ دولاب الوقت ونمرّ فوقه بعجلٍ، ونحن نتخطّى بضع لحظاتٍ مختلطة

بمشاعرنا ونتسلق سلالم الأيام دون علمٍ مسبق؛ لنصل إلى محطّاتٍ مختلفة في حياتنا، نتذكر أنّها راودتنا في أحلامنا !

في تلك الأثناء وصلته رسالة على هاتفه الخلويّ برقمٍ دون اسم، حيث احتوت الرسالة على :

"حمدًا لله على سلامتك ، ومبارك وجودك بين أهلك وأصدقائك ، لقد شعرت بالفرح الشديد حينما علمت بفكِ قيدك وخروجك حرًا طليقًا !

كما أتمنى لك حياة سعيدة ومستقبلاً زاهرًا بالعلم والمعرفة .

مع خالص الأمنيات."

كانت الرسالة خالية من ذكر أيّة تفاصيل تدل على صاحبها، ولم يكن "محمد" على علم بصاحب هذا الرقم، فقط اكتفى بإرسال شكر ردًا على هذه الرسالة ولم يهتم بسؤال من هو صاحب الرقم !

في صباح اليوم التالي، قرر "محمد" الذهاب إلى الجامعة لكي يستكمل إجراءات دراسته في الشهور القادمة، حيث المعاناة ما زالت قائمة من خلال مروره على الحواجز العسكرية التي تفصله عن مدينة نابلس !

لكنّ حياته الجامعيّة عالم آخر بما تحمله من نجاحٍ وإبداع، كأنّ خسارته لعامٍ دون إكمال تعليمه كانت كفيلة بجعل حياته تنقلب إلى طموحٍ أكبر وتحدّياتٍ مستمرة، وإضاءة على جميع الثقافات والمعرفة خاصة، هذا ما يهم أيّ شخصٍ منّا حينما تعتريه الظروف القاسية وتحلّ مُثقلة على حياته !

بدأت أفكاره في بعض الأحيان تتداخل حينما يرى هذه الحياة الجامعية وما رآه في السجن، حيث الاختلاف الكبير ربما الشمس المقيّدة بنورها وإشراقها كانت حتمًا علينا أنّ لا نستمد نبض العيش الحقيقيّ، أن نمشي خلف القوانين المغروسة في أعناقنا !

الألم بتفاوت درجاته كان أحيانًا نوعًا من القوة في داخلنا، هو من يسيّر الأمور بطريقٍ ما، هذا ما قد نجده في فؤادنا لكي نحيا كما نريد لا كما يريدون !

فالواقع ممتلئ بالمحتوى الذي لا يليق بنا، لكنّ عقولنا هي من تفرّغ هذه المحتويات من أيّة شوائب قد تمسّ كياننا !

فكان الخامس عشر من أيار/مايو ذكرى النكبة لعام 1948م ، التي حلت علينا كشعب فلسطينيّ بآلامٍ وتشريدٍ وشتات إلى كافة بقاع العالم، فأصبح المنفى هو عنوان قصائدنا !

فهو اليوم الذي تم فيه تهجير الآباء والأجداد عن بيوتهم وأراضيهم بالبطش والإرهاب والقمع المشدّد، خرجوا وفي اعتقادهم أن ساعتين من الزمن فقط تفصلهم عن العودة إلى بيوتهم وقراهم وأراضيهم، لكن مضى حتى الآن ستٌّ وستون سنة، والعودة ما زالت تُنتظر، والحلم ما زال معلّقًا بقلوبهم !

لنجد من ولد منّا في أرضٍ غريبة، احتضنته كمسمى لاجئ بعيدًا عن ترابِ أجداده وثقافتهم !

في صباح هذا اليوم، قبل ذهابي لتغطية فعاليات النكبة، أرسلت رسالة "لوطن" عبر واتس آب، حيث مضى أسبوع دون أن أتحدث معها، لم يعطِ لي إشارة مشاهدة، أغلقت الهاتف على عجلٍ، وانطلقت إلى عملي، انقضى هذا اليوم، في حين لم أتلقى أيّ رد، لم يكن من العادة أن نبتعد بتلك المسافة الطويلة بنظري، قررت أن أتصل عليها، لم يتم الرد! الهاتف مغلق! هنا الصدمة انفردت في وجهي وارتطمت في صدري ؟ لم أحتمل بَعد! قررت أن أتصل بوالدتها، أيضًا لم يتم الرد في حين كان هاتفها يرن ؟

ذكرى النكبة لم يُنس أصبح باقيًا كما نحن باقون على هذه الأرض، تعمّ المدن كافة والجامعات بإحيائه، حيث شارك "محمد"

بإحدى قصائد الراحل "محمود درويش" في هذه الذكرى التي أحيتها جامعة النجاح الوطنيّة، إضافة للفعاليات الكثيرة في الشارع الفلسطينيّ وباقي البلدان العربية والأجنبية التي يقطنها اللاجئون الفلسطينيون !

إنّ هذه الفعاليات تخلق مرحلة حضور وعي متنامٍ بين شبابنا، وتنمّي روح الانتماء لهذه القضيّة، وتجعل منهم جيلاً مبدعًا بجميع أنواع الفنون التي من خلالها يعبّرون عن قضيتهم !

خلال الفصل الأخير له في الجامعة، كان منهمكًا في تجهيز مشروع التخرج، الذي نالت فكرته إعجاب جميع زملائه وأساتذته، بدأت هذه الأيام القليلة المتبقّية من حياته الجامعية تنقضي على عجلٍ، وتتخلّلها أحداث ومفاجآت كما لا يتوقع !

أحلام التخرج ونيل الشهادة الجامعيّة، كانت أهم ما تطوّق طموح والديه، وما ينتظرونه منذ نعومة أظافره، هذا كفيل بجعل النجاح يحتاط به من جميع الجهات، ويجعل منه طالبًا متميّزًا بأفكاره التي تسلط الضوء على أهم القضايا المُهمشة ...!

في يوم مشمس، بعد تردّدٍ بالذهاب إلى الجامعة، حيث كان المرض من يقف عائقًا أمام ذهابه، لكنّ إصرار والدته على الذهاب،

أخذ به إلى الاتصال بصديقه "رامي" ليلتقيا في المكان الذي يجمع حديثهما، بعد تخطيّه الروتين اليومي في الطريق، كان قد وصل إلى محاضرته في الوقت المحدد، وخلال هذه المحاضرة كان تفاعله مع الأستاذ كبيرًا، قد يكون الموضوع قد جذبه بطريقةٍ ما أو يهمه. بعد الانتهاء من المحاضرة، غادر جميع الطلاب وبقيّ "محمد" لأنه أراد أن يأخذ برأي الأستاذ في بعض النقاط التي يرى أنّها مناسبة لتُذكر في مشروعه، وبعدما همّا بالمغادرة، استوقفته طالبة قائلة وهي مرتبكة :

- ممكن دقيقة من وقتك ؟

- تفضلي

- كيف حالك، هل تذكرني ؟

- ذكريني ؟

- اسمي "ياسمين"، لقد شاركت معك في مشروع لإحدى المواد حينما كنّا سنة ثانية ...تذكر ؟؟؟

- ممكن...اه تذكرتك !

بدأ يدور في رأسه عدّة أمور كانت قد صادفته وهو ينظر في عينيها بوجوم. إذن، هل هي من أرسلت لي رسالة حينما كنت في

السجن وعلى هاتفي، أسئلة كثيرة بدأت تتناثر في رأسه لا يعلم كيف سيختبرها ؟!

كانت واقفة بصمتٍ ويحيطها الغموض، فقالت وهي تشدّ على القلم بيدها :

- إنّي أرى في عينيك كلامًا، تفضل .

- ربما كان مترددًا من سؤالها، لكنه اكتفى بقول "تشرفنا سأذهب صديقي ينتظرني" .

غادر بسرعة دون أن يعطيها أيّة اهتمام، كأنّه غرس في تفكيره بأنّ لا يثق بأيّ فتاة، ولا يعطيهنّ أيّة اعتبار، وكأنّ جميعهن بارعات في لعبةِ الخذلان !

فحياته الخاصة قد امتلكها لوحده وأراد أن يرممّها بنجاحه لا بالآخرين !

بعدما التقى صديقه في مكانهما المفضّل والمعتاد، فعرض عليه ذلك الموقف التابع لمواقف غريبة قد صادفته من قبل، هنا كأنّه يتوجّب عليه أن يجد الحل الأنسب؛ لأنّه لا يريد أيّة مصادفات قد تزعجه أو تسبب له ضياع الوقت في أمورٍ لا تمسّه بصلة !

ذات صباح مليء بالأمل، كانت عيناه تحلّقان في السماء الصافية من نافذة غرفته المطلة على سهولٍ خضراء متموجة؛ تعكس الشمس عليها بظلالٍ ملونة تروق لها العيون وتسكنها الطيور بأنواعها، كأنّ الطبيعة هذه أعطته الطاقة الإيجابية بروحٍ مريحة تسكنه وتتغلغل في أعماقه كما البلور الذي يشبه في بريقه الماء العذب !

كانت اللحظات تتسابق في نظره، يرى الكون بحلةٍ لم يرها من قبل !

تتلاقى عدّة نجاحات حققها في داخله بقوةٍ كبيرة، بَنَت في داخله أهدافًا كُثر، وحطّت أمامه كما النصر، رغم الحرب الذي يحيط حولنا كفلسطينيين استطاعت أيدينا أن تبني حجرًا فوق حجر، وتحوّلت بنا الحياة بحضور قيودها التي تلتف حول أعناقنا، بأن تصنع مجدًا يعلو بشبابنا، وبالفن الذي أبدع بعلمنا أمام العالم، كأنّ الموت الذي اختطف قلوب من نملك ترك لنا الكثير، جعلنا نكبر بعقولٍ متّزنة تستوعب كلّ الصراعات، وتستوجب علينا أن نعلو بشأن حياتنا نحن بأيدينا !

نظرة واحدة عفويّة بإطلالتها كانت كافية لترسم له الطريق

الذي يريد، فهي بداية يوم قد كان أمنيّة ينتظرها هو وكلّ من يحبونه، خاصة والداه وأخته "هبة"، انتظار الفرح والقلوب تخفق بالحبّ و روح الحياة بدأت تفرش السعادة التي تغمر قلوبهم، الدقائق القليلة المتبقيّة تتطاير كما الفراشات الملونة التي تطوف حول الورود التي تلتقطها أنامل من يسعون بفرحٍ للقاء من يحبون، هذا المشهد بعظمته وببراعته كان كفيل ليترك الابتسامة الحقيقيّة الممزوجة بمشاعر تنبض بكلّ أنواع الحب وشغفه ...

تعب السنين الماضية بات يلوّح بعيدًا ليأتي الحُلم الذي كان يلامس السماء، هنا كانت اللحظة التي وثّقت نجاحه وإبداعه . الساعة التي تخطاها بقوة وثقة قد بصمت له تخطي مرحلة كانت عند البعض صعبة أو يكسوها التوتر، تمّت مناقشة مشروع تخرجه ليترك بصمات النجاح خلفه، ويبدأ بمسار حياة مُختلفة، تاركًا وراءه ذكريات من حياته الجامعيّة بجميع الظروف التي تعايشها بحلوِها ومُرّها ؛ لأنّ الحياة تسعدنا أحيانًا وتخذلنا أحيانًا، ونحن من نتحكّم بالمقود الذي يسير بنا !

في تلك الأثناء ولدت السعادة في عيون والديه؛ ليروا نور ابنهم ساطعًا في سماءٍ تشرع بالحياة، ومن هنا بدأت تطير قبّعة التخرج لترف عاليًا مُعلنة فرحة لا تسعها الأرض !

القوة الداخليّة حينما ترقد في داخلنا بإيمان، تخلق المستحيل الذي يراها من هم عكس إرادتنا !

قد تمدنا بالشيء البسيط ... قد تأخذنا إلى عالمٍ آخر لم نره من قبل، قد تجمعنا بأناسٍ ليسوا من اختصاصنا، أو من عرقنا أو ديننا ...لا يهم !

القبول الذاتي هو من يحدّد علاقتنا مع الآخرين، من يبني تطلعاتنا نحو المستقبل أو حتّى نحو الأيام القادمة، التي قد تنتظرها أحيانًا قلوبنا قبل عقولنا .

كأنّ الإحساس بالمشاعر برمّته هو القاعدة المُثلى التي تأخذنا إلى الشغف الحقيقيّ المتعمّد من كياننا، من عمق دقّات قلوبنا المتدفقة بعنفوانٍ يختلجها الحبّ، ويرتطّم كما الماء المتدفق على الشاطئ من نسمات الهواء العليل وقت الغروب، هذه الحياة ليست بالمُختلفة؛ إنّما القوة المستمدة من الطبيعة، لأن الله عزّوجل أعطى كلّ إنسانٍ صفة تجعله يتميّز عن غيره، لكنّ القوة تكمن في ذكائنا الذي كيف ستصوغه أفكارنا بما ينفعنا، لا بما يُتعسنا من طيشٍ هائج لا نجيد إحكام خفقانه !

فالوصول إلى السعادة طريق تملؤه الالتواءات، تسكنه أحيانًا

المخاطر وتعجّ فيه أرواحٌ شرّيرة، غايتها إبطال كل مسارٍ صحيح وتعتيمه، لذا فقط أيماننا بالله وبقدرته، هو من سيمدّنا بالوقود لننير طريقنا صوب الهدف الذي نسير عليه دون أيّ إخفاق .

دخل "محمد" مرحلة ما بعد التخرج وهي البحث عن عمل، بما يسمى وظيفة ضمن مجال تخصصه ! هذه المرحلة لا ينجو منها أيّ خريجٍ مهما كان تقديره الجامعيّ، كأنّ الحياة من هنا ستبدأ ومن هنا المستقبل سيخطّ الطريق الذي كان يحلم به خلال دراسته، لكن هل بمقدور أيّ شخصٍ منّا تحمل أعباء البحث عن عمل وضغوطه، ربما الفشل في مقابلات العمل ؟ كأنّ التحدي بدأ ينجلي أمامنا بما يحتوي من روحٍ سلبية وإيجابية !

ماذا يلزمنا لكي نقاوم هذا التحدي، ونيل ما نريد من أحلامنا ؟ أم نتمسك بأحلامٍ رسمتها قلوبنا منذ زمن ؟!

لكي نأخذ بزمام الأمور فقط لا يسعنا سوى أن نبدأ كلّ مرحلةٍ بخطواتٍ بسيطة تأخذنا إلى أهدافٍ مقبولة يتّسع لها الهدف الأكبر ، لا نهاية لأيّ شيٍ، هناك ما يسمى مكمّلات تتلو كلّ درجة سلّم نتخطّاها، عليّنا أن نقيس دوافعنا قبل أن تثقل في عقلنا الباطن، لكي يستطيع أن يقدم لنا أفكارًا خفيفة تستوعبها العقول الراقيّة !

فالوصول إلى نقطة بسيطة غير مكتملة، لا يعني طريق الفشل فتح لنا العبور إلى الفخ، والنجاح لم يكتمل كما يظن بعضنا، العثرات القليلة هي من سَترمّم هذه المعضلة التي سوف تشحذنا بهممٍ كبيرة، تجعلنا نقع في فوّهةِ ما، ونوقظ أنفسنا بذكاءٍ؛ لانّ مُجابهة الحياة يتطلّب منّا أن نتعلم من أخطائنا لكي لا نقع مرةً أخرى ضحيتها.

الخطوات لم تنته بعد، فقط يلزمنا شحن عقولنا ببعض الصبر الذي لا يعرف النفاد !

هذا ما يقدّم لنا درجات مُختلفة بمستواها، قد تعجب أحدًا غيرنا أو يعتبرها شيئًا اعتياديًا، لكنّنا لم ننته بعد ! الطريق مستمر، الثقة هي مفتاح لا يملكه سوى من يدرك هدفه، والشهادة التي سيقرؤها كلّ من يلتقي بعيونٍ تقرأ العقل !

انقضى يومين ولم أجد "وطن" نشطة على أيّ موقعٍ الكتروني، وحاولت أن أتعدى الوقت لزيارتها في بيتهم، لكن لا أحد يستجيب لجرس المنزل! ومن صخب استمرار المحاولة بالدق على الباب، خرجت جارتهم تخبرني"خالته أم "وطن" سافرت ويمكن "وطن" معها، تفضلي اشربي معي قهوة !؟"، أجبتها من وهل المفاجأة "شكرًا، أتشرف بمعرفتك، لكن أعتذر لدي عمل الآن"، وغادرت. أثار

غضبي ما حصل وبشدّة؛ فسارعت بالاتصال بأمها، كان الهاتف يرن ...تم الرد، باشرت بالتحية ثم أردفتُ " كيفك خالته، طمنيني عن "وطن" إن شاء الله بخير"، سكتت لبرهةٍ وأجابت"بخير، سأتصل فيك في وقت آخر، أعتذر منك في تلك اللحظة"، ثم أغلقت الخط...،فأثيرت التساؤلات في ذهني دون أن أتوصل إلى نتيجة .

فالدافع الوحيد للاستمرار، بناء الثقة بالنفس بصورةٍ صحيحة منذ البداية، وبإتقانٍ يعززّ النفس داخل الروح بإيمانٍ حقيقيّ؛ لأنّ السعادة لا تستمد من الحياة من غير إيمانٍ بالله وبعظمته، فالخالق لا يمنح السعادة إلا لمخلوقٍ يبدع بإيمانه، حينما يتدبر عظمة هذا الكون، فلا تستمد الراحة حينما ننظر إلى هذا الإبداع إلا بقلبٍ خاشع يسكنه الخشوع !

فالحتميّة الحقيقيّة التي تلزمنا، النقاء الداخلي ثم الشعور بالقوة من الله، والتقدّم نحو الحياة بخطوةٍ بسيطة تبعد عنا مسافة قصيرة كي نجيد حساب أمورنا بدقّةٍ، هذا كفيل بجعل كل شيء حولنا متّزنًا لكي نتأرجح على سلم الحياة بسلام وإتقان.

الفصل الخامس

” قدر مكتوب “

الحياة لا تعطينا ما نتمنى بسرعةٍ كما نحلم ...

قد تمدنّا بأشياء تقودنا إلى حياةٍ ما

وتفتح لنا أبوابًا كثيرة !

قد نتعثر حين نفتح أحدها ونغلق الآخر !

أو نجد الطريق الذي نبحث عنه !

لا نعلم ماذا يحمل لنا الغد بين طيّات صفحاته ؟

كلّما تمسّكنا بقوتنا الداخليّة ....كلّما تخطّينا مراحل كثيرة!

لأنّ نيل الرضا الذاتي لا نشعر به مُنذ الوهلة الأولى...

ربما قد يأخذ وقت طويل أو حتّى رحلة ممتدّة !

أحيانًا نبحث عن السعادة من حولنا نجد أنّها مقفلة ومقيّدة !

لا نراها أو حتّى لا نشعر بها...

لأنّ أفكارنا بُنيت على نيل ما نريد وكما نحب !

لكنّ هذه المعادلة لا تعطينا الجواب الصحيح

دون بناءٍ منطقيّ !

النتيجة مبنيّة على ما قبلها

لذا يلزمنا فقط أن نتقن فن التعامل والتعايش مع الحياة ...

أن نكون عقلاء وأصحاب فكرة راقية بمضمونها الحقيقيّ...

للوصول إلى الحياة المثاليّة التي لطالما حلمنا بها منذ سنوات !

لأنّ إرادة الله فوق كلّ شيء.

ذات جو خريفيّ متقلّب، وأجواء المدينة الصاخبة وقت حلول ساعات مغيب الشمس خلف الغيوم المشتتة، التقى "محمد" بصديقه "رامي" في أحدى مقاهي المدينة، كانا قد تحدثا عن أمورٍ كثيرة، وبعد حديث دام قرابة نصف ساعة، أراد "رامي" بمفاجأة صديقه بحصوله على وظيفة في إحدى الشركات الخاصة ، رغم أن "محمد" لم يجد للآن أيّة عمل وما زال يقدّم ويبحث عما يناسبه!

استدار "رامي" بكرسيه وهو يرتشف قهوته مقابل "محمد" فأردف قائلاً "لو لم يكن لديّ (الوساطة) لما حلمت بهذه الوظيفة !"

لزم الصمت كلاهما لبرهةٍ، كأن هناك علامات تعجّب من كلّ منهما ، هنا كسر صمتهما النادل حين قَدِم إليهما، ثم جرى الحديث من جديد عن هذه الوظيفة والحلم الذهبي الذي تحقق بسهولة، فأخبر "محمد" صديقه عن عدّة مقابلات كانت تتطلب ما يسمى (الوساطة) :

- الحياة بدأت تسير بهذا المنطلق لكن أنت تعلم حينما أخبرتك كم وظيفة ضاعت من يدي، لأنّ ليس لديّ معرّفون داخل سلك العمل، حظك يا صديقي كان جميل ! بالتوفيق يا رب .

- صحيح المشكلة أنّ هذه الفكرة تبلدت في عقول كثير من مديري العمل، وهذا مرض لا فرار منه...

- نعم، أصبح من أساسيات الحياة، إذ أحيانًا إنّني أصل إلى مرحلة اليأس، لكن أعاود النضوج بعقلي أكثر، لعلي أجد الوظيفة التي تناسبني لو بعد حين...

- لكن....ما الحل ؟ ستبقى تقدّم طلبات توظيف أم تفكر في أمرٍ آخر؟؟

- بالتأكيد لا ،هدفي كبير ...

- ما هو؟؟

- الماجستير !!

- قبل أن تعمل ؟

- بالطبع لا، لذا سأعمل بإذن الله .

- إن شاء الله أن يتحقق حلمك، لديّ لك اقتراح وإن ناسبك سأفاجئك !

- شكرا لك ...هيا اقترح .

- هل تريد العمل في الداخل المحتل (أراضي 1948) ؟

- صراحة...فكرت بذلك ...وأعلم أنّ فيها مجازفة !!

- بالتأكيد، إنّه خطرًا عليك، لكن لديّ فرصة لأقدمها لك ..ابن عمي يعمل في الداخل المحتلد وهم بحاجة شخص آخر للعمل معهم، ما رأيك ؟

- ممكن ! لكن سأخبر والدي بذلك في المساء...

- إن شاء الله، وأعطني إجابة، لا تنس ؟

- إن شاء الله .

غادر كلاهما المقهى كلّ إلى بيته، وفي الطريق بدأت صراعات داخلية تتداخل في عقلِ "محمد"، وهو يفكر في أمور كثيرة لا يستطيع إيقافها، تتدفق كما سيل الماء المنسدل من ينبوع متفجّرٍ من قوةِ ضغط الأرض .

قد تطلّ علينا في كل يوم أمور مختلفة عن طبيعة حياتنا الواقعيّة ، ربما تشبه أشياء قد رأيناها في المنام، كأنّ الكون أصبح مختلفاً !

الصراع العقلي قد نتغلب عليه في بعض الأحيان إذا وجدنا ما يدعم تفكيرنا نحو الحياة الصحيحة، لذا يلزمنا فقط قوّة الإدراك لأنّ الله هو من يعطينا إشاراتٍ لتصحيح مسار حياتنا، لنصغي جيدًا لها .

الحياة إن فتحت أبوابها في نظرِنا تُفتح، هكذا الأمل بالله هو من يصنع المعجزات كما قال تعالى:"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ".

والحياة إن أوصدت أبوابها في نظرِنا تُغلق، هكذا حبل النجاة مع الله لا ينقطع كما قال تعالى:" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا".

أكسير الحياة كما عند الخيميائيين، يتطلّب منّا أن نسعى من أجل أسطورتنا الشخصيّة، أن نستمع إلى قلوبنا ونصغي جيدًا إلى عقولنا، وأن نبحث عن حجر الفلاسفة، ولا نجعل الطريق الذي نسير عليه متعرجًا بأوهامِنا، أن نتقن فن الحياة ونجيد فلسفتها!

فشمس المغيب لا تنتظر منّا كلّ يوم أن نودّعها؛ لأنّها حياة متجددّة تستفيق كلّ صباح لتعطي يومًا جديدًا لكلّ جزءٍ في هذا الكون !

خلال نهارٍ تخلّله الملل، حان وقت المساء ليجلس "محمد" كعادته أمام شاشة الحاسوب، وقع نظره على إعلان مِنح للدراسة في إحدى الدول الأجنبيّة، دخل إلى الرابط المعلن عنه وبعد الاطلاع عليه وقراءة محتوياته بشكل جيّد، وجد أمله المنشود، كأنّ السعادة وقعت عليه فجأة وأحاطته من جميع الجهات، فانفعاله أحدث ضجّة في البيت، لأنّ الوجوم كان سيد الموقف، ما جعل أخته "هبة" تسمعه وهي في غرفتها فغدت مسرعة نحوه !

لم تدق الباب كعادتها، أمسكت بمعصم الباب ودفعته على عجلٍ وعلامات الاستفهام تسكن وجنتيها وتفرش يداها باستغراب قائلةً:

- ماذا حصل لك تغني كالمجنون وتصرخ ؟!

- يا الله لقد وجدت حُلمي يا "هبة" ...

- هيا تكلم... عن أيّ حلمٍ تتحدث...!

- بالصدفة رأيت إعلان منح دراسية ...

قاطعته "هبة" بسرعةٍ وهي تلقي نظرها إلى الحاسوب :

- لا تحلم بأحلام بعيدة ...إنك تعلم أن أهلك لن يوافقوا على السفر إلى الخارج ...اعقل قليلاً !

- لا ...مستقبلي بيدي ...أنا من يتحكم به .

- نعم ...افعل ما شئت إذن...!

غادرت أخته الغرفة دون أن تظهر له أيّ اهتمام، واستدار إلى الحاسوب لإكمال إجراءات طلب تقديم المنحة، وسط صمت المكان وحلول الليل الداكن الذي تنبثق منه نجومٌ قليلة يحجبها ضوء القمر خلف التلال البعيدة، راح ينظر من النافذة المطلّة على سكون الليل ، يذهب بعيداً بأفكاره، كأنّه يرتّب مستقبله بطريقةٍ خياليّة !

الوقت يمضي والساعات تتعدّى الماضي بهمسِ الصباح الموشح بخيوطٍ رمادية خلفها بزوغ شمسِ يومٍ جديد، لم ينمْ في تلك الليلة الماضية ولم يغف له جبين، فالأحلام السريعة أحيانًا قد تشوش وقتنا، و تسلب منّا حياتنا الطبيعيّة، وقد نسهو عن الواقع دون إدراك، لكنّ الهموم لا تسعفنا من تراكمها !

كيف سندرك الوقت الذي أحيانًا لا نرى فيه الحياة التي نتمناها؟!

انقلب الوقت لديه، كأنّ النهار صار ليلاً حالكًا، لتغفو عيناه دون إنذارٍ مسبق، ليصحو على صوت هاتفه المحمول يرن ...

رامي يتصل بك .

حيث كانت الرابعة بعد العصر، فدار بينهما الحديث التالي :

- الووو

- أين أنت يا أخي ...لقد تعبت من الاتصال بك !

- آآه في البيت كنت نائمًا، اعذرني لم انتبه لمكالماتك ...

قاطعه رامي على عجلٍ:

- لم تعطيني إجابة بخصوص موضوع العمل في الداخل المحتل ؟؟

- آآه، صحيح لم أخبر والدي بالموضوع ...

- لا ....لا تضيع الفرصة، أريد إجابة اليوم ...

- إن شاء الله بعد نصف ساعة أتصل بك، اتفقنا ؟

- إن شاء الله ...مع السلامة .

الأمور بدأت تتصادم بين حلقة وأخرى لا تنتهي، لمن سيعطي أولويّة، للدراسة أم العمل ؟

كيف سيناقش تلك المواضيع التي يؤمن أنّها ستنال رفض والده؟؟

الدقائق تمر بعجلٍ والساعة تنهش الوقت المتبقّي، ما الحل إذن ؟

بدأ الحوار يتجدّد في عقله، لم يتمالك التحكّم في التفكير، هل سيذهب إلى أمه أم والده أولاً ؟ علمًا، أنّ أمه تخاف عليه كثيرًا، ومن الممكن أن لا تدعم قراراته !

قرر ترك موضوع السفر إلى وقتٍ ما ،لكنّ موضوع العمل ينتظر منه إجابةً سريعة، خرج من غرفته منهمكًا تاركًا عقله خلفه، كأنّ الجنون أصابه فجأة ! كأنّ مفاجأة ثانية بانتظاره، ليرى والديه في الصالون بوجهٍ تسكنه علامات استفهام كثيرة وكأنّها تطير في المنزل بأكمله .

حدّث نفسه قائلاً "يبدو أنّ "هبة" أخبرتهم بموضوع المنحة...لا لا ربما حدث شيء ما !"

سلّمَ عليهم وهو يعاني التوتر السريع، وجلس قبالتهم وفتح الموضوع على عجلٍ وهو لا يدرك ماذا يتحدث، فكانت أول مرةٍ يرى والده يفور بالغضب وكأنّ النار اشتعلت بالبيت بأكمله، خلال برهةٍ من الصمت رنّ هاتفه وبسرعةٍ لا تكاد تُذكر وضعه في وضع

صامت، استأذن الخروج للرد على المكالمة الواردة، كان "رامي" من يتصل، كأنّه أنقذه من حربٍ ما، فأعاد الاتصال به وطلب منه أن يمهله عشر دقائق فقط .

رجع وقلبه يخفق خوفًا أن لا تتم أموره كما يريد، طال الحوار بينهم و تعدى الوقت المطلوب، هو يعلم خطورة هذا العمل الجديد لكنّ أحلامه لا تطاوعه، تتدفق كما الأمواج الهائجة بلا إنذار ، حالة الرضا لم تستكمل موجباتها، كأنّه أخذ القرار بناءً على نفسه !

الإجابة التي تلقاها كانت صارمة وتحمل في داخلها كلمات كثيرة ، "افعل ما تراه يناسبك"، هذا ما تفوه به والده .

أخبر صديقه بأنّه موافق على مكان العمل وفي انتظار بدئه ، واعتذر منه بشدة عن التأخير في رد الإجابة، لكنّه قابله بلطف وقبول !

الشواهد الحقيقيّة بعضنا يستطيع من خلالها بناء استقلاليته، قد يجد العبر ويعلق القوانين المحكومة على الحائط، أو قد يترك خلفه أوهام تعايشها مع الأيام، ويمتطي الأيام كالرياح العاتية دون قيود، ودون حزمٍ يقيه من عاصفةٍ قاسية قد

تشتد به وتسلب قوته، هذه الصراعات في عالم الحروب النفسيّة قد تأخذ كثيرًا من السيمفونيّات الغريبة التي لا أحد يجيد عزفها ولا تلحينها !

إذن الوقت ينقضي والحياة لا تخبرنا بما سيأتي، سوى بضع إشاراتٍ، قليلون من يجيدون فهم خباياها، هل سنمضي قدمًا دون إدراك، حتى دون توعظ وإلهام ؟؟

إن لم نغادر الأيام بالطريقة التي تناسبنا، هل تفارقنا اللحظات الجميلة عنوة ونحن بين الطرقات الوعرة، والشوارع التي لا تشبه مسارنا الحقيقيّ ؟!

الصواب المنطقيّ هو جلّ التصرفات اليومية التي تحتوينا، وتقود أفكارنا إلى العقلانية؛ لأنّ نظريات التقدّم في العقل المستقبل ناتجة عن تحليل المشاهدات اليوميّة ومقارنتها بالشواهد الطبيعيّة من منطلق العقل الباطن وما يحتوي من معلومات تفوق الخيال ، لكنّ التفكّر والتدبّر الصحيح هما أساس بناء ما سيقدمه العقل من ردة فعل اتجاه أيّ حدث أو شاهدٍ ما !

امتلاك العقل لقوّة الحدث الصعب وفلترته، هو مؤشر على الجواب الناجح !

وسط ضجّة الأيام المتتالية بما تحتويها من مواقف، المساء يأتي على هيئة ذكريات صادمة، كلماتٍ بائسة، ظروفٌ مُشتعلة يجوبها صدأ السنين، أوهام مُرعبة، وطنٌ غير أمن، طرقات في أرضنا ولكنّها ليست لنا، مع الأيام تتالى في داخله مخاوف كثيرة رغم سماع كلامات الرضا من كلا والديه، إلا أنّ الحذر بات يلاحقه كالظلّ، ينخر جسده المنهك، يبيت في فراشه، يتسلل في طريقه الخوف من الماضي، فجعله يدرك مخاوف المستقبل، يتشبث بالعمر المتبقي، ينام بين ضفاف الأحلام وسط إعصارٍ هائج يرتطم بقلبه ويرتَد، لقد مات الحبّ وهُجرت أحلامه !

الخطر يقترب ويبتعد، لكنّه في كلّ مرةٍ يتخطاه بحماية الله له، ما إنْ تشتدّ عليه الأيام قد تُفرج في أيامٍ أخرى، هذه المعاناة كانت مقطّبة الجبين تتخللها الصعاب وتوقد نارها بعض المواقف، مع كلّ ساعةٍ تنقضي تصبح الحياة أصعب !

المسؤوليّة لم تتركه من همومها وانعكاساتها، تصطدم بجدار حياته لتعلن فرض سيطرتها على حوافِ جسده المُنهك، والنوم يفقد طبيعته، والغفوة هي المسيطرة بأحلامٍ مُتطايرة، يحاول اللجوء إليها ولكنّها لم تستقر !

هل سيترك حياته تنصبّ في جوفٍ لا نهاية له ؟

أم سيترك عمره للسنين المتبقيّة ؟

قراره الصارم بحق نفسه تركه في بحرٍ هائج تتوعده الأعاصير وتقاتله الرياح !

حينما كان يتصل بوالدته كانت دائمًا ترتجف كلماتها وتردد على مسمعه" انتبه على حالك يمّا، والله يرضى عليك"، كان لكلماتها وقعًا خاصًا في قلبه، ويشعر بعدم رضاهم، وما زال يقاوم تلك الحرب مع نفسه، لم يمر يوم دون أن يتصل على أهله، لكن نادرًا ما كان والده يكلمه، هذا ما كان يخيفه ويشعره بعدم الرضا، غالبًا ما يقضي بعض الوقت بالحديث مع "هبة" وتخبره دائمًا باشتياقها "إنّ البيت ناقص يا أخي من دونك، وهناك فراغًا كبيرًا يسطو على حياتنا، كم كنّا نتمنى بتحررك من السجن، ها أنت تسجن نفسك بعيدًا عنّا، وترحل !".

مضت عدة شهور على عمله في أراضي 1948، والأيام تنقضي كالساعة رغم الضغوطات النفسيّة التي كانت تعتريه والشكوك التي كانت تساوره، والحنين الذي يختلج في أعماقه وضميره الذي كان حاضراً كظلّه، هذا الشعور مرّ جانبه رغم ارتطامه بقلبه

ونهش روحه، لكنّه قد وضع نقطة البداية في طريقها الصحيح ، الحياة مُتعبة وتأكل من أجسادنا؛ لكن بيدنا القوة التي نكتسبها بعد الجهد الذي تبذله عقولنا قبل أيدينا !

فالإصرار هو السبيل الوحيد لنيل الكرامة التي تليق بنا كبشرٍ في ظلّ المعيقات التي تتوغل الأبواب من حولنا !

نهاية كانون الأول كانت البداية لتحطيم الأزمة النفسية التي تجتاحه وترك الغربة في وطنٍ مسلوب، إنّ الأرض كلّها وطنٌ واحد، لكنّ الحدود قسّمتها إلى منفى. ذات صباح ماطر من هذا الشهر، والأحلام المنتشرة على ضفاف الغيوم، تفتّحت الحياة بألوانها المفضّلة ليرى يومًا جديدًا يروق له ويجد فيه الراحة التي قد بحث عنها سابقًا، كان أول يوم يبدأ فيه العمل في إحدى الشركات الخاصة بعقدٍ متجدد، فقد حصل على الوظيفة التي سرقت منه أحلامه ليرى حلمه بين يديه. إن لعودته إلى أهله ونيل رضاهم، جعل المستقبل يتفتح أمامه.

الشتاء كان له مذاق رائع بالنسبة "لمحمد"، قضى أجمل أيام الشتاء مع عائلته الصغيرة ورأى الأمان الذي افتقده والرضا

الحقيقيّ، كأنّ السعادة جعلته يؤمن بنفسه أكثر و يجد فيها الحياة !

فالاستقرار قد يجلب الرضا الذاتي ويمحو حبر السنين الملطخ بطلاسم الزمن المرّ، والماضي بذكرياته الحزينة المؤلمة، إلا أنّ النضوج العمري لديه قد رفع شأنه بزهو، وهيأ له امتدادًا واسعًا للتفكير وبناء حياته بصورةٍ صحيحة .

كانت الأيام تتوالى وتتطّور بما يناسب حياته، تلك النقلة النوعية جعلت منه طموحًا يسعى ليس فقط ليرتقي بذاته؛ إنّما ليقدّم خبرته وشغفه للعلم بما يرتقي بمجتمعٍ فلسطينيّ يعلو بهاماتِ شبابه !

الليل لا ينقضي دون قراءةٍ وتحليلٍ لبعض الكتب، كأنّ حياته الجامعيّة ما زالت مستمرة، لكنّه يعمل في أنظمة المعلومات، وهذا يختلف كلّيًا عن تخصصه في مجال علم النفس، فالإبداع لا علاقة له بمجال العمل اليوميّ، هل يشغل حياته بما ينسيه ما مضى من عمره؟ أم إن تفكيره ارتقى ؟

الظروف القاسيّة من الصعب نسيانها، لكن تخطي جزءًا منها، يعطي الإرادة القويّة التي تتغلّب على الضعف الداخلي، وتجبر

القلوب، وتنحت في العقل الباطن صياغة الأهداف ليسعى الدماغ لقراءتها وتحليلها، فالاستمرار في المسار المستقيم دون الخروج عن الانحناءات قد يعطينا دافعًا لتلقّي ما هو جديد، ويعطينا الروح المنشرحة لاستقبال نتائج أهدافنا وأحلامنا !

يقول "سمبسون":"إن الإبداع هو المبادرة التي يبديها الشخص بقدرته على الانشقاق من التسلسل العادي في التفكير إلى مخالفة كلية".

الاعتماد على النفس هو إبداع بذاته، عندما تجد ذاتك تتمحور حول الانجازات وترتقي بتسلسل رغم الصعوبات والانشقاقات التي تواجهها، لذا تكون قد تجاوزت المرحلة الحرجة من حياتك؛ لأنّ الإصرار الذي يُبنى على المبادئ الحقيقيّة، هو من يمنحك تلك الفرصة التي لا تعوض !

أن تقود حياتك بما يخدم الآخرين ويلبي احتياجاتهم الحرجة، تلك السعادة الحقيقيّة التي تمتلكها !

"محمد" قد طوّر نفسه ليس بالقراءة فقط، إنّما بالدورات التدريبيّة في مختلف المجالات خلافًا لتخصّصه، جعلت منه شخصيّة متمرّنة قادرة على شق الطريق الصحيح تحديًا للعقبات

وتعرجاتها، فاستطاع النهوض بعقله، اكتسب سرّ النجاح بنفسه، رغم إنّ الدعم ليس بالقدر المطلوب، والشارع لا يرحم، دائمًا يرسل برياح الإحباط في كلا الجوانب، لكن من منّا سيتصدى لتلك الأسهم العشوائية التقليديّة بمفهومها اللامنطقيّ ؟

الحل بيدنا نحن من نسمح لعقولنا بالقناعة ! إذن، الطرقات كثيرة ومنها المتفرّعة والرئيسة والممتلئة بالشوائب، كيف نتخطّى المسار الصحيح ،كيف سنتجاوز تلك العقبات ؟

عندما نتجاوز الأحداث المأساويّة ونستبدل مكانها أفكارًا تبني لنا التخطيط الجيد، ونرتّب حياتنا نحو تطلعاتنا المستقبليّة المدروسة ، ونبتعد عن كلّ الأوهام السلبيّة التي ترمي بعقولنا نحو الفشل ، هي مرحلة تجاوز التخطيط الإستراتيجي الجيد، ونقطة بناء الشخصيّة نحو الغايات نتيجة الرؤية المنطقيّة التي صاغتها عقولنا قبل أن نتطلع لرؤيتها بالعين ! لا يوجد دقيقة في هذا الكون تشبه سابقتها أو ما بعدها، كلّ لحظةٍ تأتي هي مختلفة ومتجدّدة، أحيانًا الانتظار قد يخدعنا إن لم ننتبه لإشارته، إذن كلّ شيء مبني على ما قبله، والاستنتاج الحقيقيّ ليس بالضرورة مشاهدته إنّما جعل حواس الذاكرة هي من تعطينا الظواهر لكي نرى ما يتقبّله العقل وما يلمّ به !

الأهم هل لدينا الحدس الداخلي كلّنا ؟

من أين يأتي هذا الشعور ؟

وما هي القوة التي تلزمنا لامتلاكه ؟

ثمّة أسئلة كثيرة قد تفتح لنا مقدّمات النجاح، إذا أجبنا عليها بدّقةٍ ورويّة، لكن ما هي العلامة المهمة التي تعطينا هذا الدافع ؟ ومن أين سنحصل عليها ؟

العقل الباطن هو الأساس في حال تحكّمنا بمدخلاته كما الضوء الذي يخترق الأثير !!

الشمس قد غابت خلف الغيوم الملبّدة ببرودتها وكأنّ كانون الثاني حُلة صافية كالفضّة تفرش الأيام بالأحلام المفاجئة؛ فامتطت الحبّ على جوادٍ أبيض وذهبت إلى عالمٍ لا تملّه العيون !

فالنهايات لا تمضي على البداية وتقفلها، إنّما المقدمة التي تعطينا أحيانًا ما لا نتوقع مجيئه، هنا الأيام كفيلة بجعل تلك اللّحظات مسارًا لما سيأتي ويحدث .

ثمّة أمور قد تغيب عن أفكارنا أحيانًا أو تعصرها الذاكرة دون إدراك، كأنّ لكلّ شيءٍ وقته، أو سريان الروح فيه !

لكنْ لكلّ تعبٍ ثمرة تنبت في وقتها، في تمام الساعة الخامسة عصرًا، خلال عودة "محمد" من عمله بينما كان يجلس على مقعدٍ أمام منزله تحت زرقة الشمس السماويّة وقرمزية المغيب، وهو شاردٌ في تفكيره في تلك اللوحة الكونيّة. أيقظه رنين هاتفه الخلويّ من تلك اللحظة التي تبثّ في الروح عبق الهواء النقيّ وإحساسه ! استدار ليرى الرقم المتصل، فكان أستاذه الذي أشرف على مشروعه التخرج في نهاية عامه الدراسيّ، كانت المفاجأة بأن أخبره للمشاركة في إحدى المؤتمرات الدوليّة حول طرح بعض القضايا النفسيّة ومناقشتها، واتفق على موعدٍ للذهاب للجامعة ولقائه ومعرفة كافة التفاصيل .

أن تعيش اليوم بكلّ لحظات؛ هو كفيل بجعل أيام الغد تحمل جماليّتَها !

انتهى لقاؤه بأساتذته باتفاق على جميع الأمور، وإنهاء لجميع تفاصيل السفر، وبما تتخلّله من شروح ولقاءات، أيام قليلة بأوقاتٍ متفرقة قد حضرها "محمد" بما تضمنته من تحضيرات مُسبقة مع عدد من زملائه والمشرفين على المشاريع .

الجلسات الحواريّة والاجتماعات القصيرة رغم كثافة محتوياتها قد أعطته مخزونًا فائضًا بالمعلوماتيّة والاستمراريّة، بالرغم من العوائق والأحداث المشتّتة !

الكثير من الأسئلة قد تجاوزها سابقًا ولم تصبح حاضرة لديه، لكن لماذا تعلقت بي بالرغم من عدم الاهتمام بها ؟

هل ما زالت تذكرني ؟

لماذا لم أعرها أيّ اهتمام ؟

هل ستكرهني لعدم قبولي لها ؟!

ربما...أو...لا أعلم...أفكاري مشتّتة...كيف سأعتصر ذاكرتي؟؟

أصبحت تلك المتاهات الداخليّة ماضيًا في عقله لا يبدو لها أيّة صورة !

ماضيًا هو بأحلامه لا بالأوهام التي أعتبرها مرحلةً عمريّةً طائشةً لا تستوجب الوقوف عند سخافتها !

خلال التحضيرات التي كان يشارك بها مع زملائه، التقى الفتاة التي أرسلت له رسالة عندما كان معتقلاً وهي "ياسمين"، كأنّها قارئة فنجان تعلم وقت مجيئه ! و شاركت جميع مناقشاته، وجلّ

الأوقات التي كان قد تداولها بالنقاش ووضع اللمسات النهائيّة لإنهاء الصورة الجميلة لمشروعه .

شاركته رأيها وأعطته أفكارًا كثيرة، وقد قبل هو وزملاؤه أكثر من فكرة ناجحة قد استنتجتها، لكنّه اعتبرها زميلة فقط، وكان يكتفي بشكرها رغم نظراتها التي كانت تبدو أحيانًا سلميّة وأخرى حربيّة !

لماذا هناك قلوب تلاحق قلوبًا لا تميل إلى نبضها، حتى لا تتشابه؟ هي غريبة، بالرغم من قُرب الدم لكنّها بعيدة كالسماء، حتّى وإن رأتها بنجومها المضيئة ! فالجمال يعني الروح الواحدة وليس روحًا... وروحًا؛ لأنّ الكون حياة واحدة فقط !

كان التوتر يشتدّ حينًا ويَفلت عنوة، موعد السفر دقائقه قليلة، متسارعة كالقطار بلا توقف ! اعتراض سفره كان حاضرًا في كلامِ والديه لشدّة قلقهم، باعتباره الابن الوحيد، لكنّهم لا يريدون أن يقفوا عائقًا أمام نجاحه وطموحه بمخاوفهم !

حان الوقت وتمّ سفره كما النسيم الذي يمرّ خفيفاً، فكان لوداع والدته، عمق لا يستطيع تفسيره، مشاعر الحزن والسعادة تتمالكها، تفتخر بابنها وبطموحه، وقلقة من سفره، ونزعة القلب

وتمزقه قد اعترت "محمد" عندما غادر أرض الوطن للمرّةِ الأولى، لكنّ مشاعره عندما وصل إلى "دبي"، قد التصقت ببعضها، عجز عن إفلاتها ليتحكّم بقلبه دون جدوى !

هل مرت صورة "هيام" في ذلك الشريط المُمزق، المليء بالعقد حول تلك الذكريات الحزينة ؟

أم إنّ صورة والدته وهي تودّعه بدموعها الحبيسة قد اختنقت في صدره ؟

لماذا لم يجد معرفة تلك اللغة الغريبة التي لا تفسر اختلاجاته؟!

الحبّ حبيسٌ يجري في عروق دمه ويدق في القلب الذي ترمّم بعظمةِ إصراره وإرادة الحياة التي وشمها في أمله، فالطريق طويل لم ينته بعد !

راح يجوب غرفته يحدّث نفسه، أزاح ستار النافذة، ليجد نفسه يطلّ على عالمٍ يسكنه العلو، يتنافس بالبنيان، يخترق السحاب ...الحياة هنا تختلف عن الألم الذي يصبو في ريق كلّ فلسطينيّ يقبّلُ تراب أرضه كلّ يوم ! الألم قد يعطينا الروح التي نتمسك فيها رغم تعدد الخيارات، لأنّ الشعور بعمق التحدّي قد يفصل

المعاناة الصادقة عن الحياة المغلّفة بالبهو !

كانت الشمس قد دنت للغروب، غادر النافذة إلى سريره ليجلس يطالع كتابًا في التاريخ، قد أهداه إياه شابٌّ جزائريّ، قد التقى به في مطار "دبي"، ترك خيالته، و ألمه وأحزانه الماضية التي لا تتركه أحيانًا ؟

قد نغادر لحظاتٍ عصيبة خانقة، لكن سرعان ما تعود دون أن ننتبه!

قد نمزق جلدنا؛ لنهرب من صفعات الأيام القارصة، ونجد بعد وقتٍ أنْ عاد التحامه !

إذن ما القاعدة ؟

لا شيء يملك الشيء، القيود غير محتومةٍ على شيء، لأنّ اللاشيء لا وجود له ؟!

بحلول غروب هذا اليوم، كنت بحاجةٍ إلى الجلوس مع نفسي أمام إطلالة منزلنا، جهزت كوبًا من القهوةِ، ورحت أجوب المكان بنظري؛ فالهدوء كان يفرش البيت بأناقةِ صوت الطبيعة، لا أحد في المنزل، رنّ هاتفي وسرق نظري من جمال هذا اليوم، إنّها "وطن"؛ فخفق قلبي حين لمحت عينايّ اسمها، "هالوو، كيفك

وطن..."،قاطعتني بانفعال "مشتاقة لك كثيرًا، قريبًا أراكِ"، لم تمنحني الوقت الجيد للنقاش أكثر، سوى الاطمئنان فقط، فحدثت نفسي "عليك يا "لينا" أن تأخذي بزمام الأمور، ولا تجعلي من القلق سبيلاً لإفساد يومك". طويت صفحة هذا اليوم وشعور الراحة ينبض بداخلي كما الهواء العليل الذي لا يملّ .

الحب لوحة أماميّة لا يمكن أنّ نرى صورة جميلة من خلفها، هي تحمل الألوان التي تتناغم كما خلقها الله بألوان الكون . المشكلة، تكون عائق أمام القلوب الخاطئة في الاختيار، لا تجيد معنى العيون ولا تؤمن بالشغف الحقيقيّ المتبادل، العيون التي تلاحق الوهم وتحاول سرقته وهي تعلم خفاياه وتنكرها تبرمًا !

الفصل السادس

" العودة "

" يا أمّنا انتظري أمام الباب إنّا عائدون"

محمود درويش

الظل يلاحق أحلامنا أيضًا !

ليس فقط في الظلام !

كما العودة وكما الرحيل ...

لا شيء يسقط ويرتطم في الأمواج ويعاود دورانه !

إلا العودة، إنّها الحتميّة الباقيّة في دورانها

أنْ أقلع بتشبثي بالحياة قد يعطينا الحلم !

الذي قد انتزعت منه أطرافه، لأبقى في نفسي لا في جسدي المهترئ؟

كم أحاول أن أخيط بقايا الجروح التي اخترقت أوردتي !

كم أحاول الصعود !

وأحاول، لأنتقي حلمي وينتقيني ...

كلّ شيء حولي لا يستوعبني، لا يحتويني ...

أحاول أن أمضغ تلك الأوقات التي تعتصر بقلبي وتفتت خيوطه!

سأرمّم البقايا المتساقطة بالذهب !

سأخيط أحلامي المنكسرة !

رغم عالمي الزائف الذي يحاول إخمادي في فوّهة نفسي المظلِمة !

اللحظات الجميلة يسترقها الوقت منّا دون إذن، تتطاير كما الهواء البارد في لحظةٍ مفاجئة، تغادر على عجلٍ، لا تودعنا، خافتة لكي لا ننتبه إلى رحيلها، متناقضة، مفتّتة، تذهب عنوة دون أنْ توقظنا !

تنقضي الشهور كلمح البصر، وانقضت الأيام، وأنا واقفةً في وجهها، اغتالني الملل، واجتاحتني الوحدة، لم تَعد "وطن" كما وعدتني، هل نقضت عهدها ؟! أم أنّ شيئًا حلّ بها ؟ استمرّ هذا التفكير في عقلي، أردت أن أكسر صلابته، عدت أتصل بها مرةً أخرى، حيث في كلّ مرةٍ كانت إما لم تستجب أو تختزل نصف الحديث، لكنّ هذا الاتصال قد فرضت إطالته، ودار حديثنا كما أريد:

- أنا في وطنٍ لكنّه ينقصه "وطن" ؟

- كم أشتاق بلهفةٍ وأريد لقياكِ يا "لينا"، لو تعلمين كم أنّ الظروف تبث سمومها في وجهي...

- أعذركِ أحيانًا، فأنا أعلم أنّ لي صديقة حينما تعتريها الظروف، تلوذ بالعزلة فِرارًا...

- لكنّ هذه المرة قد خرقت أحلامي تلك المحنة !

- لكن، أيّ محنة تقصدين ؟

- المرض يا"لينا"، يبدو إنّه النهاية التي ستطيح بي !

- نحن، بحاجةٍ إلى أن نقف بقوة في وجهه، لا تسمحي لهذا الضعف أن يخترق جسدك !

- أحاول، لكن سريعًا ما أعد إلى هزلي وضعفي وانكسر...تذكرين حين قلت لكِ سأعد بعد أسبوع إلى الضفة الغربيّة، إذ يصدمني خبر بقائي للاستمرار بالعلاج، يبدو أنّ مكوثي سيكون في غياب .

- لا تقولي هكذا، أعدك يا "وطن" أنكِ سترجعين كما أنتِ وأجمل، ثقِ بكلامي، وتذكّري بأنّ الله عزّوجل لن ينسى من يتجرع بألمه خالصًا له ويرجو رحماته...

- الحمد لله، أثق بدعواتك يا "وطن" لكن من يرى الموت، يُصعب عليه الإفلات منه...

- كلّنا نشعر بالموت أحيانًا، لكنّ وقته بعلم الغيب، علينا أن نقاوم هذا الشعور بالإيمان ...

- العلاج أراه كما الموت ...

- معك حق، قد يبدو قاسيًا، لكن ما إن أعطيتي نفسك فرصة التّحمل، قد تنجو من المرض ؟

- أنجو من السرطان...!

حينما سمعت تلك الكلمة، أحدثت بركانًا في قلبي، وانسكبت الدموع من عيناي، ما أبغض الحياة ! وحدّة سوداويتها حين تقف وأنت تسمع هذا المرض، حاولت أن أعد إلى قوتي، بالرغم من الألم الذي انتشر في جسدي، "وطن" أنتِ أقوى من كلّ هذا، لم تجب، وجدتُ الاتصال مغلق، يبدو أنها أنهت المكالمة حينما نطقت تلك الكلمة القاسية !

الحرية أن تكون في وطنك كما تحلم، وتسير الطريق الذي تستوحيه بأفكارك، إذن هل القوة التي نستمدها من ضوء الكون قد تعطي لأملِنا فرصة التحقّق ؟

الكون مسار لا يتوقف، كما أوجده الله وفق أحكامه، وإن سارت قلوبنا على هداه كما قال تعالى :"قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى".

لأنّ هدى الله هو طريق واحد الذي يوصلنا إلى الغاية !

"عُدت لأرتوي من عطش قلبي، لأول مرةٍ أشعر بشعورٍ لا أجيد وصفه، بين يديكِ وأغسل وجهي بدموعِ فرحك ،لا أريد أن أفلت من طوق الياسمين الذي ينعش روحي، أريد البقاء كطفلٍ لا يقتنع بإفلات أمه !

أمي أنتِ قوتي، كم أنا أستمدّ منكِ قوةً تزيدني أملاً، وتشحنني بمستقبلٍ شهمٍ يعلو بدعائك !

لماذا الأم أوطان ؟!

لأنّي وجدت وطني في عينيكِ ."

العودة إلى أيّ شيء تكون بداية جديدة، خلال الأيام التي انقضت من عودة "محمد" من دبي، التقى بصديقه "رامي" في كافيه اعتادوا عليه دائمًا، حيث تحدّثا عن السفر ومواضيع كثيرة، أخبر "محمد" "رامي" عن بعض الأحداث التي قابلته، وبعض الأشخاص والشعور الذي كان يراوده، عن الغربة التي كانت قصيرة، وبعض

التفاصيل الصغيرة التي يعتاد الأصدقاء التحادث بها؛ لم يتركا شيئًا إلا تحدثا عنه .

خلال عودة "محمد" إلى البيت، اتصل به صديقه الجزائريّ، كان قد قضى معه بعض الوقت في "دبي"، وهو مهندس مدني اسمه "عبد الله" يعمل في إحدى الشركات في "دبي"، كانا قريبان في التفكير والتعامل أيضًا هذا ما جعل صداقتهما تدوم ولن تصبح عابرة...

أحيانا نلتقي بكثير من الأشخاص ربما أكثر من مرةٍ نصادفهم؛ فيكونوا عابرين من الذاكرة لا نذكرهم ولا هم يذكروننا، وهناك أشخاص يلتصقون بذاكرتنا ويحجزون مكانة في قلوبنا، فالقلب قد يسبق العين ويضع مكانة جميلة لبعض الغرباء ليصبحوا لنا أوفى من الأقرباء، يهتمون بحياتنا ويكونون حاضرين في نهارنا وليلنا !

الحياة التي تسير وفق الانضباط الذي نحاول جادين لوضعه؛ تعطي المستقبل الذي تقابله ابتسامتنا، وتشحذ هممنا للوصول إلى المراد، وتعطي نتائج تطلعاتنا العميقة والمبنيّة بإحساسٍ عميق وقوة .

آذار قد أعلن الربيع، والألوان بدأت تتطاير كما الخريف، وشعاع شمس المغيب قد أعلن انقضاء اليوم، بينما كان "محمد" يتصفح الجريدة، قد وقع نظره على إعلان شاغر وظيفي يختص بالمحاسبة في إحدى الشركات ويشترط خبرة سنتين .

لم يأبه لها وانتقل للصفحات التالية...قد انتهى من قراءتها؛ ليذهب إلى حاسوبه الشخصي لتصفح حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي، دق الباب، إذ "هبة" تخبره بأنّ "هناك مفاجئة لك" ، أغلق شاشة حاسوبه، وكان ينظر إليها باستغراب !

حيث كانت تختبئ وراء الباب إحدى يديها، ليجد إنّها الجريدة التي قرأها قبل ساعة .

- ما الجديد ؟!

لم تفهم عليه، حيث إنّ الجريدة أفسدت تلك اللهفة وأخمدتها فقالت له :

- هل قرأتها ؟!

- نعم، وأنتِ تريدين أن تقولي عن الشاغر الذي يشترط فيه خبرة سنتين ؟؟

- ما المشكلة إذن ...لا علاقة بالخبرة.

خرج "محمد" من غرفته متجاهلاً كلام أخته ولا يعيرها اهتمام، لحقت به وتوسلت إليه أن يسمع كلامها قليلاً ...

التفت إليها قائلاً :

- معك دقيقة واحدة ...

- طيب طيب

- هل تخسر شيئًا إن أرسلت CV للشركة ..

- مجنونة

- لا لا ..اسمع حاول، لعلّها هذه المرة فرصتك !

- عندما أعود ...

- لا لا ...الآن

بعد جهد كبير و"هبة" تحاول إقناع أخيها، وافق وأرسل لهم السيرة الذاتية، وهو غير مقتنع من داخله .

"هبة" دائمًا ما ترى النجاح في عيون أخيها، وتؤمن بقدراته ومواهبه المتعددّة، وترى أنّه موهوبٌ من رسوماته الدقيقة التي يرسمها بقلمِ الرصاص، حيث اكتشف أن لديه موهبة الرسم عندما كان في السجن، في كلّ يوم تقوم بترتيب غرفة "محمد" تُمعن نظرها في لوحاته المعلّقة على الجدران، وتؤمن أنّ دقة

التفاصيل هي ذكاءٌ وقوة عالية في التركيز، وقد فتحت تلك الرسومات مداركها أمام كثير من الأمور، وتعلّمت منها الكثير، وفي كلّ رسمةٍ تحدق فيها تجعل تفكيرها ينمو ويعلو بعقلانيّة !

التفاصيل الصغيرة لا يدركها الكثير، هي صفةٌ في بعض العيون النابغة، وهي تطلعات للمستقبلِ وأملٌ مُشرق .

قد تعطينا أحيانًا الروح التي تترك بصمتها في الأماكن العامة وتعطي انطباع عن جمال الحياة، وعن الألم الذي انقضى !

بعد انقضاء يومين، رنّ هاتفه المحمول، يبدو أنّ الرقم غريب !

ردّ، إذ إنّ المتصل فتاة تخبره عن موعد مقابلة عمل غدًا الساعة الثامنة صباحًا، كأنّه تلعثم في نهاية حديثه، ولا يصدق الهاتف !

استيقظ باكرًا مخالفًا لكلّ يوم، لم يخبر أحدًا بذلك، فكان هناك نوع من الفضول من قبل والدته و"هبة" التي كانت تجهز نفسها للذهاب إلى المدرسة، لكنّ هاتفه كسر هذا الفضول؛ برده قائلاً :

- "رامي" أراك إن شاء الله بعد المقابلة ...وضع هاتفه على الطاولة واتجه إلى المطبخ ...

- الله يجيب الخير يمّا ...ويفتحها بوجهك يا رب ..

- شفت يا خوي ...عشان تعرف أختك "هبة" جيدًا ...يلا موفق ...تأخرت على الدوام سلام !

جهزت له والدته فطورًا بسيطًا من لبنة وجبنة وقليل من العسل والخبز، وتحدثا متقطعًا، ثمّ غادر البيت وهو يصارع التوتر في نفسه !

لكلّ يوم حكاية، قد لا ندرك قيمتها أو نتجاهلها، لا ندري لعلّ ما يخيفنا أحيانًا قد يكون الشيء الجميل الذي يسعدنا، تناقضات الحياة متشعبة وقد تتعارض، أو تتفق، لكنْ كلّ هذا لا يقف أمام وقفةٍ عميقة قد نلتزم فيها لدقائق معدودة؛ لأنّ قدرة الله هي من تكتب لنا الأماني .

استمرّ في عمله حتّى نهاية العقد، حيث كان شهرًا كامل، وطلبت منّه الشركة بتجديده لعدّة شهور، لكنّ خلافاته المستمرة مع صاحب العمل أجبرته على ترك عمله قبل الشروع بتجديد العقد ...كان قراره من ذاته دون أخذ رأي أحد !

رغم بساطة الخلافات إلا أنّه أعطى الإجابة السريعة ...

تحفّظ بسببِ تركه للعمل بنفسه فقط، كأنّ عليّه أن يحيط حياته بملفٍ خاص! لم يجب على الأسئلة التي انهالت عليّه من

أصدقائه وعائلته، كأنّه ارتدى الشخصيّة العنيدة التي تؤمن بأفعالها دون مشاركة الآخرين وأغلق أبواب العبور إلى داخله، وتلحّف بالعزلة والبقاء مع الذات والانفرادية ...

استمرّ على هذا الحال قرابة الشهرين، رغم مخاوف والديه التي كانت تترقّبه وتداري شعوره، إلا أنّ الجنون والغضب قد بدا على أمه ولم تعد تتمالك نفسها تجاهه؛ فألزمت نفسها على السفر إلى "عمان" بصحبة ابنتها "هبة" عند إخوانها؛ لتمكث قرابة شهر...

كلّما كان يتصل "محمد" فيها ويطلب منها العودة؛ حيث كان لا يطيق العيش بدون والدته، وكان الضّجر يعتليه ويضجّ في صدره...

كانت تكتفي أمه بصوتها المرتجف بقول "عدْ كما كنتْ..وأعدني أنْ أراك ابني المدلّل الذي دومًا أراه كالوردةِ المتفتّحة ؟!".

لماذا الصمت كان يحالفه، ويقتل غضب أمه ؟

ما الذي يريده ؟

هل الظروف قد تقلب حياتنا رأسًا على عقب ؟!

حيث يقول د.هلمستتر:"إن ما تضعه في ذهنك سواءً كان سلبيًا أو إيجابيًا ستجنيه في النهاية"

إذن من يملك مفتاح السعادة ؟

كيف سنصل إلى النجاح وإن كانت أفكارنا سلبيّة يجوبها اليأس؟!

ما هي نهاية ظُلم النفس ؟

إلى أين سنذهب بعد محاربة أحلامنا ؟

فالنهاية الحقيقيّة نحن من نتحكّم بمساراتها بعد التوكل على الله ؛فالحتميّة الحقيقيّة هي قدرة الله التي تعطينا ثمرة الجهد الذي نبذله بنيةٍ خالصة وحب .

راح يجوب غرفته يحدّث نفسه بأمورٍ قد جهلها تفكيره لبرهةٍ، كأنّه كان عليه أن يكون أكثر وعيًا وإدراكًا .

" أيام قليلة مرت متقلبة سريعة أحيانًا وثقيلة كالضيف الذي لا أروقه أحيانًا أخرى، بضع دقائق كانت كفيلة بقلب الطاولة الحديديّة ليظهر صدأها البشع، ليس إلا غياب العقل عن الجسد ربما الروح، شيءٌ ما مختلف، لا يوجد تشابه بوقتٍ ما !

الأسئلة تُطرح وتُجيب بذاتها، لا تنتظر منّي التفسير، الحال يتقلّب كما الليل الذي قد تسوده فجأةً رياح عاصفة تطيح به إلى الجحيم، كلّ هذا كان عليّ الصبر أكثر !

لما أنا أقف في المنتصف ؟!

ولا أغادر هذه النقطة، الوضع لا يطاق، وأشعر إنّي لا أحسن تغيره ! لا أعلم بشيء، ضائع بنفسي، هناك صفحات متطايرة تحاول أن تقترب منّي لكنّي أغمض عينيّ بقوةٍ كي لا أرى حدودها السوداء، قد كرهت الماضي وأنا في المنتصف، ولا أرغب بالتفكير بالمستقبل، سأقفل ذاكرتي، لا أريد منها أن تفتح لي صفحة واحدة، ولا أن تعبث بأحلامي !

قد كسرت الحلم فكسرني الليل بسواده، حتّى إنّ النجوم قد اختفت، أصبحت لا تطيق شؤمي، والنار تشتعل كما البركان في صدري، لا السماء تسعف جرحي ولا الليل يخفي انكساري، كلّ شيء بات ضدي، والقلب خفقانه يؤلمني وشرايين دمي تمزق جلدي، فأنا حبيس أنفاسي، وأتقيأ جرعة الظُلم بمرارةٍ ! "

لم يكن لعودة والدته تغيّر جذري على حالته، كأنّ شيئًا ما قد مات ! غريبٌ ذلك الحال الذي يقتل الإحساس والشعور، الذي

يهرب بالحياة الواقعيّة، والذي لا يسمح لأيّ جهةٍ بترميمه، كأنّ الأطراف التي تحيطه مبتورة . عندما يقف الزمن في وجهنا أحيانًا لا نستطيع تغيير أساس المشكلة ولا إلغاءها من عقولنا، تبقى كالوشم في صدورنا ملتصقة وتخنق أنفاسنا ولا تسمح للهواء بالمرور بين الدمِ . لكلّ مشكلة صياغة ما، ولأفكارنا مصاغ هو من يجعل الأحداث تنضج نحو الأفضل، فأيدينا هي من تلمس كلّ مادةٍ لتشكيلها كما يناسبها وأحيانًا تجعلها تُحفةً فنيّة !

حين نقترف الفشل أو يتصدّى طريقنا، سننعت أنفسنا بأنّنا فاشلون ؟!

هذا غير معقولٍ؛ فالحياة طويلة ومسارها لا يستقيم دائمًا، وفي كلّ مرة يتعرّج الفشل أمامنا ويمنعنا من اجتياز طريقنا، يجب أن نكون أقوى من هذه المرحلة، أن نثابر أكثر، سنجد بعد عناء الاجتياز إنّ هناك مرحلة قد تخطيناها، وإنّنا أدركنا أمورًا كثيرة أكثر، هذا بالإضافة إلى التعلّم من تلك الأخطاء، وإثراء عقولنا بمحتوى مفيد للأيام المقبلة .

إذن ليس معقولاً أنّ الفشل يبقى ملازمًا لنا، إن كان هناك دافع نحو النجاح، الحقيقة إنّنا نملك مفاتيح النجاح في حالِ تعدّينا

كلّ موقفٍ بتأنٍ وحكمة، وليس العكس بالشؤم والضياع وغلق النفس عن الآخرين وكتمان المشاعر وحبس القوة بإخمادها كما رماد الاشتعال .

الشهور قد تكون أسرع من الأيام، تسبق الريح، فنضيع بين أوراق الكون المبعثرة، وقد ترأف بنا النجاة أو نسقط أرضًا !

هل تتوقف الحياة عند نقطة معينة ؟

أم إنّ القدر قد رسم لنا كلّ حياتنا، ولنستسلم للظروف، وننتظر فرج الله القادم دون أنْ نسعى ؟!

حيث قال تعالى:"وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ " .

لا أحد يحاسب عن أحد، والنفس لا تنال إلا ما سعت له، فإنّ ما يحدد تميز شخص عن شخص هو مقدار ما يبذله وما يقدّمه في سبيل نهضته وعزته، فالكون خلقه الله متناغمًا لا يتوقف عن حركته؛ لذا على الإنسان أن يكون دومًا في سعي لتطوير ذاته وأن يتعلم ويكون قريبًا من محيطه، ويتخلّى عن الوحدة والانعزال والخضوع لإغواء الشيطان .

مع حلول منتصف الليل، وسكون الأجواء الشاعريّة، بدأت الكلمات تخط أولى الحروف لتترك بصماتِها على الورق الأبيض،

هل أصبح شاعرًا؟ ربما، كأنّ كلّ ليلةٍ موعودة بقلمه ليخطّ كلّ ما يجول بين ثنايا القلب وباطن العقل !

إذن الكتابة إنجاز، بدأ يتخطّى كلّ محاور الفشل التي كان مرتكزًا عليها، فهوت . خلال فترة قصيرة أراد أن ينشر كتاباته على الصفحات الاجتماعية، وبوقتٍ قريب من الثانية قد نالت على تفاعلٍ سريع وحظيت بمشاركاتٍ وتعليقاتٍ خياليّة كقوةٍ تحفيزيّة، هذا دافع كبير لكلّ إنسانٍ يغرق مرة في الماء وأخرى في الهواء !

الرضا عن الحياة الافتراضيّة مقبول، لكن ماذا عن الواقع الذي يعيشه، وتركه لعمله وعدم حصوله على عملٍ بديل ؟

العذاب ما زال قائمًا، لكن لوم النفس هل يستحق أن يستمر؟

رغم تجاوزاته لبعض الأمور، إلا إنّه غالبًا ما يعود إلى نقطة البداية كأنّها وُجدت للعودة ! لكلّ مرحلة يجب أن تتوّج بتجاوزاتٍ وتكون مقدمة للوصول إلى النقاط التالية، هذا بالإضافة إلى أن يكون الماضي مفتاحًا للاستمرار لا للتوقّف؛ فالنجاح ناتج عن بناء العبرة وترميمها لا تركها مُهمشة بلا إدراك.

الصراعات ما زالت قائمة في تفكيره ، رغم انشغاله بالكتابة وقراءة الكتب والمقالات، لكن سرعان ما يعود العقل إلى التشتّت في حالِ سهو العين وغياب القلب، فالتحكّم بمدركات الجسم الحسيّ يختلف من إنسان لآخر، هذا من خلال قوة الإيمان والثِقة بالنفس وعدم الاستسلام للأفكار السلبيّة التي تنعت النفس بالفشل .

في التاسعة مساءً غادر "محمد" البيت بكامل أناقته للقاء صديقه "رامي"، حيث كان عائدًا من السفر، فالتقى به في بيته مع عدد من الأصدقاء، حيث أرسلت الشركة التي يعمل فيها "رامي" بعض الموظفين؛ لأخذ دورات قد تفيد مستقبل الشركة ولترتقي نحو الأفضل، بعد انتهاء السهرة بقيّ "محمد" لوحده، وتحدثا عن جميع إجراءات السفر، وعن الشخصيات التي تعرّف عليّها "رامي"، وخلال انغماسهما بالحديث توقف "محمد" فجأةً عن الكلام واستدار نحو النافذة، حيث كانت مُطلة على منطقة منخفضة تتّسم بالتنوع السكّاني والهندسي، كأنّ معركة وقعت في رأسِه أبطالها لا يقاومون العدو من شدّة حراستهم، فانتشله صوت"رامي" من تلك المعركة وهو يقترب خلفه قائلاً :

- هل انزعجت من حديثي لتلك الدرجة ؟!

- لا ....لا تهتم !!

- أنت قد تغيرت، يبدو أنّ شيئًا ما حدث في غيابي، صحيح ؟

- لماذا حكمت عليّ بهذه السرعة ؟

- صراحة .

- أكم م م ل !

- من عدّة أمور .

- ما هي إذن ؟

- غالبًا ما تنسحب كلّما كنت أتحدّث معك عبر الواتس أب وأنا في "دبي"، قاطعه بوجوم :

- كنت منزعجٌ من نفسي، لا من أحد !

- غريب !

- ما الغريب ؟

- إنّك أصبحت غريبًا عليّ !

ضحكا الاثنان بصوتٍ عالٍ، لم يتمالكا نفسيهما من كثرة الضحك لعدة دقائق، إذن ما الغريب في الأمر ؟ ولماذا فقد "محمد" الثقة بجميع من كانوا ركنًا أساسيًا في حياته، من أصدقائه وأهله ؟

هل يفقد المرء نَفَسَ الحديث عندما يقع في بؤرةٍ صغيرة من الفشل؟

كأنّ "محمدًا" بدأ يرمّم وجومه واختفت خطوط البؤس عن وجهه، واستعاد طاقته الإيجابية المرِحة من جديد، هل سيدوم وجهه هكذا ؟ أم إنّ عودته إلى البيت ستعيد له لوم النْفس وقتل الأمل ؟!

بجمال محياه نظر "محمد" إلى صديقه مُسترسلاً :

- لم تخبرني عن الأمر الآخر، ويبدو هناك أمور أخرى ؟

- ها أنت تنشر كتابات ولا تأخذ رأي، تهتم كثيرًا بمتابعيك على الفيسبوك، الكثير والكثير ...وأيضًا عندما أسألك عن عملك تغيّر الموضوع ربما تنزعج، ثمّة أمور كثيرة عالقة في ذهني، لا أجيد إجابتها، حتى البحث عنها، هل تعلم لماذا ؟

- أكمل !

- لأنّك تعني لي الكثير، وأنت الصديق العزيز لدي .

- أهم نقطة النافذة ...

- لم أفهم !

- ما بك، رأيتني عند النافذة ؟

- هل تقصد هذه النافذة التي في الغرفة ؟

- أصبت !

- قد أخذتني إلى عالم قد يخرجني من الظُلمة للأبد، إن تحقق الحلم الذي أضاعته ذاكرتي !

- أخبرني أين وجدت السعادة هنا أم في السفر ؟

- السعادة إن كانت موجودة في داخل الإنسان، تذهب معه أينما حلّ !

- إذن نحن من نصنع السعادة ؟؟

- النجاح وتحقيق الحلم مفاتيح السعادة .

غيّر "محمد" جلسته كأنّه متشجعٌ للاستماع كما لمحاضرات علم النفس، التي كانت تأسر كلّ حواسه، لكنّ "رامي" لفت نظره جديّة صديقه الذي كان يستشيره في كلّ شيء، ليجد أنّ الأمر قد انقلب، ها هو "محمد" يشعره بأنّه يحتاج تفسيراته لكلّ شي، ليردّ عل آخر عبارةٍ :

- كلّ إنسان رغم ذكائه وخبرته في الحياة، يحتاج أنْ يعرف وجهة نظر كلّ شخص تجاه كلّ شيء؛ فالحياة نتاج لتجارب البشريّة، وروح الاستماع والمناقشة .

- جميل جدًا، لكلّ إنسان بصمة في الحياة .

- بالطبع، لذا قد نجد من كلام الآخرين رِفعَة وانتشالاً من اليأس وبناء الذات .

- لكن لم تخبرني عن الحلم ؟

- الحلم، سأبحث عنه قريبًا.

- كيف؟

- أعدك إنّي سأخبرك إنْ عثرت عليه!

الفصل السابع

” خبايا القدر “

تركتُ حقيبتي على متاهةِ الطريق

وضِياع القلب في مكانٍ بعيد

فرشقني هواءُ العشقِ في كأسٍ غريب

اجتمع الصيف مع الشتاء على مقعدٍ خريفيّ

خلف أنشودة الوطن...

وقصّة منفى البعيد...وطائر الرسائل القديمة

كلّ أحلام الطفولة انتقلت إلى المقعدِ الخريفيّ

فكانت حكايتي "يُغلفها الضباب في يومٍ بارد

وتلامسه الرياح بخفةٍ كشغفِ الحبّ "

فسقطت الأقنِعة أمامي كالحَقيقة !

فعادت أغنيةً تغرّد في سماءٍ قريبة

فمتى يحبّني من أحببته ؟

وأنا لا أعرف من التقطَ حبل الضياع

لأشدَّ أوتار الهواء على كفّ بكفّك

عادت إليّ مُخيّلة الكلمات الشاعريّة

فأنتِ أول القصيدة

فلامستُ الزمن بهمسةِ حبك

فنمَت وردةُ الحنين على رمالِ الصحراء

فكانت الأعجُوبة

تركتُ الضّياع يلمّني من جميعِ الجهات

فسألت نفسي: هل أنتِ متصالحةٌ معي ؟!

فجاوبني صدى صوتٍ بعيد ..لا لا

الحبُّ انكسرَ، مهزومٌ على الترابِ

فرأيتُ الموت وقتلتُ الحياة أمامي

فكانت خيانةُ الزمن قاتلةً

فقتلت وردة في الصحراءِ بسيفٍ جاهليّ

ولا أثر يجمع قلبي بقلبكِ

فوقعت حقيبتي على متاهةِ الرصيف

ليعرفَ الآخرين أنّي أحبُّ الوطن !

حاولت أن أبذل قصارى جهودي لأسترق وقتًا للسفر؛ فالانتظار كما الغيب في نظري لا أعلم خفاياه، وصلت المستشفى الذي تتعالج فيه "وطن" بعد انقضاء نصف يوم مُنهك بالتفكير وإجراءات العبور إلى "الأردن" مرورًا باستراحة أريحا (معبر الكرامة) ثم باجتيازه إلى جسر اللنبي التابع للاحتلال، فكانت الساعة الرابعة عصرًا فور وصولي "لعمان" بعد مروري على جسر الملك حسين، التقيت بخالتي "أم وطن" في مدخل القسم المتواجدة فيه، كان وجهها مختلف عما اعتدته، وكأنّها بدت أنحف من ذي قبل، والحزن يبرق في عينيها، أمسكت يدي قائلةً:"لم يكن من الداعي أن تتركي أهلك وتأتي هنا، يكفي إنكِ دائمًا ما تتصلي ولم تنقطعي عنا باهتمامك، شكرًا لكِ ولمعروفك الذي لن أنساه"، بادلتها الحديث:" إن لي أختٌ واحدة وهي "وطن"، لن أتخلى عنّها مهما حصل"، وصلنا غرفة "وطن" كانت مصفرة الوجه ومغطاة الرأس، ترقد على سريرٍ وبيدها إبرة الدم،كنت قد قلت لها سابقًا سأزورها في "عمان"، لكن حينما رمقتني، كم كانت السعادة تتطاير على محياها، أخبرتها" كم أشتاق للأيام التي تجمعنا ولكلّ ساعةٍ كانت تمرّ بعفويتنا وشقاوتنا أحيانًا، فأنا أثق

يا "وطن" بعودتك قريبًا"، "هذا ما أرجوه، رغم الحب الذي يحيطني في هذا المكان، ووجود أمي التي لا تفارق عيوني، أحاول أن أقاوم المرض وبقوة، أعدك" كانت تقول لي حين جلست على طرف سريرها، فشاركتنا الحديث "خالتي أم وطن" قائلةً:""وطن" بخير وصحتها تتحسن نحو الأفضل بإذن الله، لم يبق سوى وقت قصير وتجتاز تلك المرض، وأعلم أنّ إرادتها أقوى من هذا المرض".

لم يسعفني الوقت للمكوث في "عمان" أكثر من يومين، فعدت إلى أرض الوطن وأنا أؤمن بشيءٍ ما، لا أعتقد أن هناك من ينسى بسهولة الجدران التي تحتويه، الخفايا التي تنعكس على الجدران لا تنكرها العيون، لهذا عندما يفتقد الشخص مكانه الذي اعتاد العيش فيه، يبقى يصارع تلك التخيّلات التي تقترن بنفسه لمدّة معينة، هنا قد تكون قصيرة وأحيانًا تأخذ الوقت الطويل، لكنّ ذلك يعود لطبيعة المكان الجديد والأشخاص والذات أيضًا !

وصل "محمد" المطار الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، العتمات ما زالت تُخفي غرابة "استراليا"، فهو الآن سيقطن في بلدٍ غريب ليس عربيًّا، التوتر ما زال يلاحقه في كل الأمكِنة، رغم إنّ هناك من هم يملكون الجنسيّة العربيّة، المشكلة ليست في العروبة، بل في البُعد المفاجئ، في التحدّيات المتعطّشة للحلم، الصراع

النفسي، التوهج، الأرض، السماء، الذكريات، ثمّة أشياء كثيرة حاضرة لا تغيب، لا شيء يختفي سريعًا مُنذ البداية، الاقتران وملازمة الشيء تحتاج عُمقًا من الوقت، هل غالبًا ما تختفي منّا الأشياء بمجرّد مغادرتها حتّى وإن كان الوقت ليس حليفنا ؟

هل ينعكس المكان الجديد على نفسه ؟ وكيف سيتأقلم مع اختلاف الثقافات، وتغيرات الوقت ؟! لذلك غالبًا ما نجد أنّ الحياة قد انقلبت، أو أصبحت مخالِفة لقوانين النّفس التي اعتادتها، أو لا تَصلح لنا، وكأنّ اليأس يبدأ يفرش أمامنا حروبًا كثيرة، قد نتغلب عليها وننتصر، وقد تأخذنا إلى طريقِ الهلاك .

حيث إنّ طبيعة النّفس البشريّة رغم تقلّباتها، سريعًا ما تَعد إلى نقطة البداية .

" المذكّرة الثالثة "

عادَ الحنينُ مرةً ثانيةً، كأنّ السجن قد أحاطني، تفاصيلٌ كثيرة، ودقّات القلبِ المُتسارِعة، كلّ شيءٍ هنا لا يعجبني، الطُرقات كثيرة، وأناسٌ غُرباء، وذكرياتٌ تعودُ إلى أحضاني، وأنا جالسٌ أراقب الدقائق، مشتتٌ، مختلفٌ، أسمع الأصوات حولي ثمّ سريعًا ما أعُد إلى شتاتِي، أتقمّص دور الجنديّ الخفيّ، وأعاود الرجوع إلى مكاني، ما زلت أنتظر، كأنّ هذا الانتظارَ لا يشبه سابقه، مختلفٌ باختلافٍ، يتوارى خلف ظلّي، لا يسبقني كما الماضي، حاضرٌ يذوبُ أمامي وينصهر ثانيةً، غريبٌ هذا اليوم، أيشفع لأحلامي التي استرقتُها من عيون أمّي ؟! أيقطر في وجداني، لا أعلم، أشعر بلا شيء حولي وأنا كالصّنمِ، محنطٌ بكرسيّ .

أيغفر الله حُزن أمّي ؟!

مرّت السنين في تلك الساعات التي انتظرتُها، ومرّ ظلّي مع خطواتي، فسمعتُ في تلك الأثناءِ ضرباتِ أقدامي تعجّ في أذنيّ، لا أحد معي سوى حقيبتي التي تحملُ في داخلها ألمي وذكرياتي، أنا وهي أصبحنا واحدًا في الظلّ، أيُفارقني الحنينُ وأنا أبتعد رويدًا

رويدًا ؟ لا، بل زادني شوقًا وشعرتُ بالفراقِ يقتطعُ قلبي ويرتطم، الحلم متعبٌ في داخلي، لكنّ العزيمة ما زالت تنبضُ بروحي، وتتنفّسُ من الأوكسجين الذي أتنفّسه؛ فهواء السماءِ زادني قوةً، فالأحلام تسكنُ في السماءِ، فأنا أسيرُ مع حلمي إلى النهاية، رغم المخاوف التي تعتريني وتجتاحُ أنفاسي فجأةً، ما زلت أقاوم، وأقف كلما أهبط، ما زلت أقاوم .

لعلّ انتصاراتِي تكون حليفةً لي !

كثيرًا ما أجد أنّي بالقرب من النافذة في أيّ مكانٍ حَللتُ، لكنّ النوافذ مختلفة في المكانِ والزمان، قد تتشابه بالحنين والذكريات، لكنّها مختلفةٌ بالتفاصيلِ والسويعات التي قد تمضي دون أن ننتبه، لكلّ وقتٍ اختلافٌ بتلك التفاصيل التي قد تأخذنا إلى لا شيء، أو قد تكون بداية لكثيرٍ من التفاصيل،هذا ما يجعلنا أحيانًا مختلفين، لا نشبه حتى أنفسنا !

هذه النافذة التي سأطيل النظر من خلالِها، ستكون إطلالةً على المستقبلِ، لكنّ التفاصيل الكثيرة والغرابة في هذا العالم الذي أنظر إليه من كلا الاتجاهات، تُخيفني أحيانًا وتشتّت عقلي أحيانًا أخرى. إنّ البدايات صعبةٌ ليس كالمنتصف الذي يغدو بنا

لنهاياتٍ قد تناءى عنها كلّ الخطر، رغم إنّنا نُبقي أنفسنا تترنحُ كالريح التي رنّحت الغصن بغفوةٍ عاتية؛ فسرعان ما يعود التوازن ينبض من جديد، والنفس تعود إلى ساكنيها وتقطر في القلب روح الحياة النابضة، وقد تجد أنّ لا محلَّ حاضرٌ لليأس، ولا قوة ساقطة من العين، ولا جلبًا للألم، ولا ظلَّ مخيفًا، فيَعود التوازن بالتوازنِ!

ماذا لو ركّزنا جلّ اهتمامنا على زاويةٍ ما ؟ هل سيكون ذاك التركيز حليفاً لتلك الفوّهة التي تحتاج الكثير من التعمّق والغوصِ في أعماقها ؟

إذن نحن ننظر لظاهر الشيء، ولا نعلم باطنه، نرى صورةً من بعيد ولا نعرف تفاصيلها، نرى غيمةً ضخمةً لأولِ مرةٍ من الوهلةِ الأولى لكنْ لا نعلم كم نجمةً تُخفي في ظلالِها؛ فالتفاصيل عمقٌ ونظرةٌ تخفي وراءها الكثير من النقاط التي لا تُرى منذ البداية؛ فلننظر للكونِ بعمقٍ وتمعن، سوف نجد لذةً في إحكام الكونِ وتوازنه!

البدايات دائمًا تكون مِن سُلم أولويات حياتنا. طرقتُ البابَ معلنًا أنّ هذا اليوم سيكون من أولى أولوياتي، قد نجد أشباهً للشيء،

فالاختلاف من يولّد هذا التشابه، فقط نتناثر، نتطاير، إذن رغم كلّ تلك الكلمات المُتقاربة، لكنْ تجعل مِن عمقِها قمّة الاختلاف!

بدأت أعي كيف سأغدو إلى أعماق الذات، وتجاوز نقاط الضعف التي كانت عبئًا يرقدُ في تجويفِ قلبي، أستعيد التوازن، أرجع إلى الطبيعة التي كانت تعبق في قلبي وأنا في سن التاسعة، فرقٌ كبيرٌ بين العمرين، تلك الفجوة بدأت تكبرُ وتتعايشُ مع أحداث الطبيعةِ، والحرب، والقضيّة، والحجارة، مررتُ بعدّةِ مراحلٍ، لا أعتقد أنَ هناك طفلٌ في هذا العالم، قد خاض غِمار تلك التجارب، نحن مختلفون ! ثمّة أسئلة كثيرة قد يطرحها من يقرأ كلمة "مختلفون"، لكن هي تحتاج مغامرة للاكتشاف من فوّهة الكلمة!

لا أعترف أنّ هناك يومًا قد شعرت فيه بالذنبِ حيال أيّ شيء، لكن عندما كبرتُ بدأ الذنب يقتلع منّي جزيئاتٍ كثيرة وينال منّي بعقابه لي، مشدوهًا أحيانًا بكلّ صغيرةٍ وكبيرة، أحاسب نفسي طوعًا لذاك الذنب، الذي لا يغادرني ويلتصق بجلدي، أيُّ قوةٍ كانت تنبض بعروقِ دمِي ؟! أين الاختلاف قد وجِد ؟ وكيف للطفولةٍ أنْ لا تحاسبنا من طيش تهوراتِنا، والزمن الآن لا يرحم ما تفكّر فيه عقولنا ؟!

الاختلاف ما زال حيًا !

الاختلاف لا يتشابه؛ بل يبقى مُختلفًا بالضد أيضًا .

لا شيء يغادرني، كلّ الأحلام تصبو في أعماق حواسي، فأنا لا شيء ينسيني ما أشدّد عليه، والغيوم في داخلي مُثقلة، لا تحتمل المسير، فأمطرتُ ما في قلبي بين يديّ صديقي الذي يقطن معي في الغرفة، من بعد ساعةٍ كانت تتطاير بالثواني بلا توقف، فأيقظني مجيؤه كشهابٍ أفقدني تركيز نظري قائلاً :

- ابتعد عن التفكير، فأنا أخشى أن ينتصر عليّ بحروبه !

- التفت إليه " أتعلم أنّ إرادتنا إن بسطت كلّ جبروتها في أوردتنا، سيكون التفكير حليفنا، إن تخلّله حلمٌ وقوّة ؟!"

- نعم- دائمًا- ما أجد أنّ قوّتي تتجدّد من كلماتك !

- لكنّي أحاول أن لن أُكسر كالقوّة الحديديّة .

- قلت لك - سابقًا- أنت رجلٌ حديديّ .

- غالبًا ما أضعف .

- دائمًا ما تنتصر .

- أعلم أنّي مختلفٌ!

- لكنك مستمرٌ لا تنقطع عن ذاتك ؟!

- لستُ دائمًا.

- بل، في مواقفٍ كثيرة .

- عقلي الباطن قاموسٌ-أحيانًا- يخذلني !

- لكنّ قلبك لا يُكسر !

- قد كُسر !

- لا تقل من الحبّ؟!

- بل، الحبُّ !

- الحياة لا تشمل - دائمًا- الحبّ! هناك اتجاهاتٌ كثيرة، ومعالم تحتاج منّا البصيرة .

- أجدت القول، وبعظمة .

- لنرمي ثِقَلَ أفكارنا مع تلك العاصفة الهوجاء، ولنعدْ إنّها الواحدة بعد منتصف الليل !

عُدت مع صديقي "وسيم" إلى السكنِ الذي نقطُن به، فالعاصفة قد خرقت كلماتنا ،وأجبرتنا على العودةِ إلى الجدرانِ والحكايات؛ لنفتح أوراق الزمان ونرجع إلى الطفولةِ وشقاوتِها، الغيوم هنا دائمًا ما أجدُ بأنّها مختلفةً عن ما كنت أرى من نافذةِ غُرفتي؛ فالاختلاف ما زال يلاحقني كالريش المتناثر وقت الخريف؛ فهو لا يلتقي بل يتطاير!

هكذا دائمًا ما أجد أنّ "وسيمًا" يردّد "بأنّنا متناثرون في هذا الكون لنبحث عن أوراقٍ تلتصق معًا؛ لتشكل حياتنا".

"الرواياتُ بناياتٌ شاهقة يصعب المرورِ على تفاصيلها سريعًا" كما يراها "وسيم"، فهو مواظبٌ على قراءتِها كلّما واتته الفرصة، وتصطفَ في غرفتنا بأحجامِها وألمِها وعمق أسرار أبطالها ؛ لأكشف بعض الحكايات. بينما كان "وسيم" غارقٌ ببحورِ أحداث الكتاب الذي بيدِه، لذتُ بالصمتِ لبعض الوقت ثم اتجهت صوب المكتبةِ لأخذ كتابٍ قد وقعت عيني عليه قبل وصولي نحوها، فكان عبارة عن روايةٍ أجنبيّة وهي المصيدة للكاتبة الانجليزية أجاثا كريستي - فهي- عبارة عن قصة بوليسيّة. رغم إنّي مُتعمقٌ بالفلسفةِ إلا إنّ التغيير قد يلزمنا لفرطِ الملل وطرد السأم، فوجدت نفسي بين ثنايا أوراقٍ تطاردها أحداثٌ مُنهمكة، وتكتسي حروفها بالغموضِ؛ فلم أستطع أنْ ألوذ بالفرارِ فأمسكني بوليسٌ مُتمرس ؛ ليوقظني من تلك الغفلةِ بزوغ شفق الفجر !

غَرِقنا كلانا في أحداثٍ نشلتنا من تفاصيل الحياة المُميتة؛ فأوقدنا نار الملل إلى أن بات رمادًا، استرق النعاس متابعة بعضٍ من الرواية؛ فراح "وسيم" غارقًا بالنوم دون وعيٍ مُنبّه، ونبّهني وقت

الصلاة، حين رفّت عيني على ساعة الحائط التي تنبض عقاربها من شدّة هدوء تلك اللّيلة !

في خلوةِ السجودِ، يمرُّ الأحبة فيرقُّ القلب بالدعاءِ وتنبعُ الأمنيات ،فما لنا سوى الله عزّوجل في الرجاءِ بكلّ خطىً تنوء،والحب لا يعظم إن لم يكن خالصًا في جوفِ القلب ،أيردّ الله سبحانه عينًا تاقت بالدموع ؟!

حينما نُرغم أنفسنا عن تركِ ما لا يرضى الله عزّوجل؛ فنجد أنّ الهمّ قد انجال، وخواءُ النفس قد امتلأت بروحِ الله، وزهو الروح لا ينضب عن مَبسم الوجه، ولا يجور عن الحق، ولا يقود طريقًا نائية، ولا حائدًا نحو الضلال؛ فما بعد النصب إلا فرجٌ من الله جلّ جلاله ينعم بروحك، ويغدق عليك بنعيمه !

قد تركنا خلفنا أرواحًا تسكنها الأماني، فلم يسعفنا الزمان بمجاورتها؛ فكانت المنال الذي تراوغ علينا؛ فكيف نُبقي النّفس عالقةً بالهلاك ؟ كلّ شيءٍ مرّ في زوايا حياتنا رغم عدم تشبّثه بأطرافِنا، أنلحق هذا العبور الذي لم يكتبه الله لنا، عنوةً ؟ القدر محتومٌ على أرواحِنا لا مفرّ منه !

كثيرًا ما يردّد "وسيم"" لماذا تأخذك غفلةُ التفكير؟" وأنا لا

أشعرُ بفلتاتها حينما تشرنقُ بروحي، كانت الساعة الرابعة والنصف في يومٍ مشمس خلف الغيوم القانية إلى الأحمرِ والأصفر والسماء الموشّحة بين الزرقة والحُمرة، كنّا جُلساء المقعد الخريفي بين ظلالِ شجرتين ملتفتين من العلو على شكل قوسٍ منحنٍ ككفين عاشقين لا يفلتا بأيديهم من شدّةِ الحبِ !

البدايات قد تعود أحداثها تتناثر في قلوبنا ولا تنطفئ، فعدت إلى نقطة البداية التي جعلتني أقفز دون وعي وأتطاير في سماءٍ بلا حدود، لم أنسَ تلك اللّحظة التي جمعت بين حلمي وفرحي وحزني وشتات الأحداث التي أقفلت تفكيري في غفلةٍ ما،حينما فتحت البريد الإلكتروني في زمنٍ عشوائي ؛لأجد بأن الحلم يقف أمام أمِّ عينيّ كفراشةٍ ملونة قد يخطفها الوقت إن لم أتقن جميع ألوانها كرسمةٍ بارعةٍ في مخيلتي ،"تم قبولك في برنامج الماجستير" قرأتها عدة مرات وكررت قراءتها ...فأنا ما زلت أقف على ناصية الحلم وأقاوم !

"لكنّ القلق يعتريك أحيانًا" هذا ما قاله لي وسيم وهو محدقٌ في عينيّ مربوط الجبين ...

- الخوف ينبض في صدري وقد يغادرني ...

- كم صعبٌ أن أجيد فهم نفسك !

- لا غموض في شخصيتي، لكنّي أخشى الحديث عن ماضٍ نهش أحلامي !

- البعض يقول "بأنّ الحديث ترويحٌ لنّفس، أليس كذلك؟!"

- نعم، لكن ...

- أحيانًا شخصيّة الإنسان هي من تُفرض ذلك !

- لا علاقة للشخصيّةِ، إن كان التفكير مُساغًا على نمطٍ ما؛ فيفرض ذاك الطبعَ على صاحبه مع موتِ الشعور ...

- كلامك يحتمل الصّحة، لكن كيف سنعيد برمجة العقل الباطن بناء على المنطق وخِلافًا للشعور ؟!

- القناعة، لكن تختلف بطبيعةِ الشخص، إن كان عاطفيًّا أو انفعاليًّا ...

- ربما !

- الجنون أحيانًا مؤلم !

- هذا إن كان عن عدم إدراك .

- المشكلة مع الأهل تختلف، خاصّة إن تمالكها العناد !

- آه، إذن ...

- والألم مذاقه صعب حين تذكره، لنقل الحقيقة ؟

- أوافقك ...لكن هل حان الوقت لندفنه ؟

- قد دفنت كثيرًا منه، لكن مع العائلة مختلف تمامًا...!

قد سكتُ لبرهةٍ، وبدأنا السير باتجاه البحر، فكانت السماء مرآةً تعكس ألوانها على ماءِ البحر تشرحُ الصدر وتُثلج نارَه، والبناء يتوازى على ضفافِ السحاب المتداخل ويعطي بين الثانيةِ والأخرى صورةً ساحرة عن الطبيعة، وعُدنا نتابع الحديث الذي لا ينتهي ولم يكمل حروف اللغةِ كلّها، ونتحدّث والنظر يسترق ذلك الجمال الذي يتتابع مع وقت الكون؛ لنجد في لحظةٍ أنّ الحياة قد ألغت طاقتنا السلبيّة، ومشاحنات النّفسِ الدائمة، وفتات العمر الذي ينقضي وهو يلاحق آمالنا !

هل مجيء الجمال ينقضي في عمرٍ ما ؟

أم إن العيون هي من تختاره ؟!

كان قرار سفري مصيريًّا، كابوسٌ لا ينتهي لا في حلمٍ ولا في حضرةِ الغيابِ عن الواقعِ، فالنفسُ توّاقةٌ للاكتشافِ والمغامرة لا تنضب عن أحلامها، ولا تتوبَ عما تتبناه وتتشبث به، هل هذه إرادة قاسيّة بحقِ النفس ؟ أم أنّ لا ضير على أحلامِنا ؟!

لكنّ النسيان لا يمرّ من أمامنا يبقى عالقًا في الذاكرة، فحين لمحت عيناي قبولي في برنامج الماجستير، بقيت ترفُّ حتى تلك اللّحظة، خلف تلك النظرة التي خطفتني إلى الحلمِ، كانت خيبةً قد اجتازت عروقي كسكينٍ مُسننٍ بلسعاتٍ و وخزٍ جارف، هي لحظاتٌ ووقتٍ قد انقضى، لكنّها لم تنقضِ في الذاكرة !

متى نتحكّم بمصيرنا ؟

حين يكون قرارنا قد شَفعت له طاعة والدينا، حيث كيف سننال الرضا من دونِ غُفرانهم ؟ ورضا الله عزّوجل موقنٌ برحمةِ قلوبهم لنا !

راحة النفس لا تستقر حين تخلو من الطّاعة، ولا يسكنها الأمان من بعدِ المعصية؛ فتتهاوى كالبناءِ الذي يختلّ بتوازنه، وتتشرنق بالهواء المنقطع، وتطفو على السطحِ مُعلقةً بخيطٍ حادٍ من المنتصف، لا تقوى الإفلات، ولا روح الماء يُحيها !

هذا هو المنتصف الذي يقتل الحياة بداخلنا، ولا يسعى أحيانًا لعتقِ الروحِ من شراراتٍ خاطفة، تتقاسم الوقت؛ لنيلِ راحةٍ قد تخطفها الأنفاس من فراغ الكونِ الصامت !

اجتمع الفرح مع الحزن معلنًا حربًا في داخلي لا أقوى على الإفلات من خلجاتِ النفس المتشتّتة، ولا أستطيع اللجوء إلى نفسي ولا قلب أمي الذي ينفرُ من الغُربة وسمّ البُعد ! حينها كان عقلي فارغًا من العقلانيّة، رغم مساندة والدي - فيما بعد - بقبولٍ متردّد، إلا أنّ عيون أمي كانت توحي لي بنوعٍ من الألم، والشعور بالذنبِ ووخز القلب وخفقانه. قد أذقت لوعة البعدِ؛ فهذه كفيلة بجعلِ قلبي يعود إلى الصحوةِ أحيانًا والفرار من الواقع أحيانًا أخرى !

أمي تراني ملاكًا صغيرًا، وتخشى عليّ من عثراتِ الحياة ،دائمًا ما ترى ابنها الصغير بعنفوانِه، لا تحتمل غيابه ولو لساعاتٍ قليلة، مواظبةٌ في البحثِ عنه في تأخّره، وفي التعمقِ في عينيهِ الخضراوين.

هي كالروحِ عالقةٌ مع النبضِ ولا تفارق العروق في كلّ حالاتها، ترى الوجود ولمعانه في وجودِه، الذي يضفي للحظاتها معنى الأمومة، وقوّة الحبّ الذي لا يموت، هي السلام الذي يرفُّ كالعَلمِ على الأرضِ التي ينبعُ في جَوفِها أرواحًا نابضة بالحبّ والعُروبة، هي قطعةٌ لا تلبث فتاتها من روحِ صغيرها، هي ترى ابنها كالصبيّ الغِرّ من رؤى داخلها ومن عينيها تراه كالفارس الذي يقود حربًا

كاملة، لكن غالبًا ما تنقادُ لداخلها الضعيف المنسوج بالحنانِ والخوف !

جمال قلب الأم لا ينتابه شعور الحرمان، ولا يفرش له بِساطًا؛ فالحنين مُجتَمِعٌ لا ينفضّ، باقٍ مع الروحِ وسبيل العذابِ الذي يجتاحه غياب العين وحضور القلب !

لعلّ موعدًا قد أتى دون علمٍ مسبق، هذا غِرار الأحداث التي تشاركنا جلساتنا وهروبنا من نواقصِ الحياة، كأنّ الكون يعلن كماله في وقت الذّروة، وغياب القلب ! لنعد إلى ما وراء الوقت مِن لا وجود ولا حاضر، فقط ما يسمى الحضور الخاطف، والنفسُ المتململة منمشاحنات اليوم وضياعٍ مُفتت لا نخشى عليه من رياحٍ مفاجئةٍ، تكتمل اللّحظات كأنّها تاريخٌ مُنقضٍ، لا تستوجب اعتبارًا للاحتفاءِ بهذا الموعد، ليس كلّ شيء كأيّ شيء، ما لا يراه القلب لا تستحليه العين !

تمرُّ الدقيقة الأولى مُحملةً بعتماتٍ بين زواياها أوراقٌ مُبعثرة كالقصاصاتِ التي لا حرفًا يجمع مع كلمةٍ معنى؛ فالبحر لا يعطي للروحِ نقاءٍ، إن لم يُرحها المكان ! فكيف بالنفسِ التي لا تنجذب لطبيعةٍ مُختلفة عن الطبيعة ؟!

وكيف لروحٍ جلست بجوار روحٍ دون أنّ يراها القلب ؟

وماذا بعد القلبِ المُقفل بعقلٍ اعتراه طبعًا مختلفاً عن ثقافةِ عقلٍ ما ؟

نظري صوبَ طبيعةٍ كونيّة لا طبيعةٍ بشريّة؛ لأعلن أن الروح تهوى السماء ولا تطيقَ فرض الحياة على حياةٍ تخشى البُعد؛ فما مضى كان وكيف بما هو آتٍ سيكون، والمكان لا يروق لنبضي رغم إنّ غيومًا كثيفة كانت تفصلُ أعالي البناء عن هواء السماء؛ فامتثلت صورةٌ أرضيّة تجرّدت منّها الزُرقةُ وبقيت تُرابية، أين الجمالُ الروحيّ ؟ أين الطبيعة المتكاملة ؟ ما بالُ العيون الناظرة اتجاه الكون الفارغ تَرمِش بين الثانية والأخرى ؟

أُعلن الحداد على تلك الصورة التي مرّت في زمنٍ قصير، ومضى الوقت، وتبقّى شيء لا أجيد وصفه، قد ندون الكلمات ويكتب القلم دون توقف، وقد يتوقف العقل لبرهةٍ وتعمُّ الأسئلة. هل يرسل لنا القدر الأشخاص فَرضًا ؟ لكن، كيف للقلبِ أن يعمَّه النفور وينصرف بعيدًا، دون عودةٍ - رغم - إنّ اللقاء كان دون موعدٍ، استحضرته الحتميّة وفرضته مع الوقت، وجلبت لنا الطبيعة ظواهر الكونِ فشتّت أنظارنا، وأبعدنا ذلك النفور عن قلبٍ جاء

بروحهِ كلّها، ونحن الجسد الميت غافٍ في صمتٍ مبرح، ولاهٍ عن بحرٍ هائجٍ بأمواجه ويسترق بين دقيقةٍ وأخرى بقايا لون الشمس الغائبة !

كانت كلمة "Hi" قد قابلها ردٌ مُشابه لا قبله ولا بعده شيء "Welcome"؛ لتجلس وأغادر ألا مكان بعد الدقيقة الخامسة؛ فأصبح المقعد الخريفيّ مِلكٌ لها بعد التنازلِ عن وقتٍ رسمته قبل أيام ،لم أفرّغ نفور قلبي من الحياة، ففرّغت من نفوره من هذا المقعد الذي جمعني مع غريبةٍ بدون موعد !

عودة الشتات كان دائمًا متربصًا بذاتي؛ فأنا ضائعٌ فيه ويضيع الوقت الصعب من شتاتي؛ فماذا تبقّى للأسبوع المقبل بعد ؟!

نحن لا نجيد معرفة خفايا الأيام وما تخبئ، لكن إجادة أنفسنا لا تتم دون قتل فناء النفس الفارغ؛ لنغادر الوهم وما لا يطيق مجالسته القلب .

الفقد واللوم طريقان قد تتخلّلهم الممرات الوَعِرة، ولكلّ منهما فلسفةٌ وروح، لا تتشابه بل تختلف في العمق، فكيف لروحٍ كانت تقطن في جوارِ روحٍ اكتست بالأمانِ وقتلِ ماضي الخذلان، أن تغادر

حياتنا على عجلٍ ؟ وما يلبث القلب إلا أنّ يتأرجح بين الوحدة والغياب !

عدتُ ألملم أوراقي من جديد، وأجالس الكتب الفلسفيّة القريبة إلى النفسِ، فأغلفة الغياب بين طيّات الكتبِ تراكمت وتكدّس الحنين بين الرفوف، وتشعبت القراءات بين الأدب والفلسفة التي لا تغادر ميولي نحو القراءة، في كلّ لحظةٍ أقف صوب النافذة، تمرّ لحظة الغياب وأفتقد تلك الروح، فكانت الساعة السادسة صباحًا المشتتة بين الغيومِ وتشققات الشروق، الوداع الخاطف لصديقي "وسيم" ؛ لعودته إلى "عمان" بعد إنهاءِ دراسته العليا، فهذا المشهد أصبحت أنتظر بثّه مرةً أخرى بصيغةٍ تناسب إيقاع قلبي المتدفق بالحنينِ ومشاعر الشوق .

الغياب غائبٌ من الحضور، لكنّه عالقٌ في النفسِ، ومكانة الأصدقاء الحقيقيين لا تنطفئ مهما أطفأنا سِراج المكان؛ فكيف بالعتماتِ أن تمحو حكاياتٍ تضيئها الجدران الشاهدة على أرواحنا؟! ما بعد الفراق قتلُ الطبيعة الكونيّة التي تخشى قطعَ الحديث؟

"الموت يغيب عن أفكارنا أحيانًا، لكنّ الغياب يستأنس من أنفسِنا

الحضور دائمًا".

جَنَنتُ مع الطبيعةِ، قد أتحدّث معها تارةً، وقد أغرقُ مع شتاتها تارةً أخرى؛ فجُنّ الناي من نوتاتٍ قد كتبتها معزوفة القلبِ، فلم يتبقّ لسمفونياتِ الطبيعةِ مكانٌ للعبور، قد تأججتُ بين الوقتِ لمراسمٍ تليقُ بشرودي، فالطبيعة لا تستوحي الجنون من ساكنيها، هي تبث شريطًا لا يتوقف، نحن من نملك فترات التوقف ؛ لنتعلم من استمراريّة الكون الذي لا يتوقف، فشرودنا كفيلٌ بغيابنا عن كلّ اللّحظات التي تنقضي . الوقت كهواءٍ تختطفه قوّة العاصفة، فكيف تدرك بُعدك عنه ؟ ستنجو إن أحسنت هذا التعمّق!

هل لا زلتُ أعيرُ اهتمامًا لمجرياتِ أحداثٍ تمرّ مع كينوناتِ الوقت ؟ لأتوقف لبرهةٍ. تخطّيت تلك المرحلة بعد دعكٍ لذاتي وجلدِ النفسِ من شركِ العذاب، "سأنجو". كانت صعبةَ المنال، بعيدةً عن الخاطر؛ فنجوت من حفرِ الذات وطريقِ الهاوية، بماذا سأخبر قلبي عن شيءٍ كان أم سيكون ؟ هذه الفلسفة تستوحي نفسًا عميقةَ التفكير لا شرود يحتويها، جازمة بفعلِ قوة الفعل لا رد فعلٍ حالِك. السوداويّة متى حلت بالمرءِ، أذابت خلايا الروح بشنقِ النفس، أيّة أوردةٍ ستنجو من هذا الهلاك ؟

الجبرُ متى أحلّ أغمد كلّ هلاكٍ بالنجاة، فالقوة تَرد من جبرِ الله سبحانه وتعالى، فمتى أَستعين بالله؛ استقامة حياةٍ بأكملِها. الشمول أنْ ينبض الله في قلبك قبل شروعك في عملك، أنْ توقن بقوّته قبل إرادتك؛ فنجاة النفس تقوى الله، حيث قال تعالى :"وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ".

مررتُ بين أزقةٍ وأعمدة، مرصعَّةٍ بالحضارةِ وشِغاف الوطن، أسواقٍ والليل يختلجُ من شدّةِ البرودةِ على ضياءِ الأنوار بقطراتٍ لا تلتقطها العيون منذ الوهلة الأولى، وكان الازدحام مُتراصًا، كلّما أفلت منه تأخذني القِباب إلى الإمعانِ بدهشةٍ، أصحو من كلامِ الناس واندفاعهم، ما زلت أسير على أرضٍ حزينة ،مُقفلة الأبواب ،وفي كلّ زاويةٍ أصلُ إليها مدججةً بجنودٍ متفرقين وأحيانًا مجتمعين، لم أذكر أنّني زرت هذا المكان وهو خالٍ من تلك الوحَشةِ الاحتلاليّة، أسيرُ ببطءٍ والحزن بجانبي ،كلّما ألتفت يمنًةً ويسرة أرى بكاء الجدرانِ وأحزانه على من تركوا المكان عنوةً، أرى أشياء بالشعورِ لم تُر !

أيقفل بابٌ قد فتحه صلاح الدين؟ أتسرقُ أرضٌ لشعبٍ بلا أرض؟! قد خيّم الحزن على ذاكرتي ،عدتّ إلى زمنٍ بعيد، قليلٌ منّا من

يجلب حضوره؛ كأنّ كلّ شيءٍ لم يكن .

ما زلت أتابع المسير رغم وقفاتي المتقطّعة ،الجدران في علو تلامس السماء ،ويعلو صوت الأذان ،وتعلو دقات قلبي بين كلّ خفقةٍ وأخرى !

بدأ الفناء يتكشّف وأعالي الأشجار تميلُ مع روحِ الهواء ونسماته التي ما إن مرّت بين أوردة القلب، أضحت بروحٍ باردةٍ من وهج الحياة؛ فقبة الصّخرةِ أخذت نظري بين زخارفٍ ممزوجةٍ بألوان الطبيعة. صحوت فلم أرَ سوى انعكاس الفجر في سقفِ غرفتي؛ فأسدلت ستارة النافذة .

فزرت "القدس" في منامي !

الفصل الثامن

" لا تبكِ خلف الناي "

لا تبكِ خلفَ الناي

حيثُ الغناءُ سرٌّ في مخيّلةِ العاشقين ..

فَفرش الصحراء ورد وتلحّف بنسيجِ الندى

اغرسْ الأرضَ قمحاً

وفي حقولِ المنفى تذكّر العائدين

لا تغادر طويلا فاعتيادُ الرحيل قد نفته شمسُ المغيب

فأنا أبتسم وأمتلك الكلمة

والانتظار يفتحُ آفاق الراوية على يدي

ويظلّل المكان قصّة الخبز

ويسير قطار الهواء كالصبا

في ليلةٍ ظلماء

على أوتار خشبةٍ بيضاويّة

وخلف الاستعارات تجن اللغة

وفي البلاغة تسردُ الأغنية كالقصّةِ

عن حلمٍ ترك الكلام بلا نقاط

فينفرد الحلم طويلاً والحبّ وحيداً

والصمت حولي يجعلني انبضُ شوقًا واشتياقًا

لا تبكِ خلفَ الناي

عيناي تشتكي الفرقة ....عُدْ إلى الغناء

لا يتوقف الناي عن العزف ما دامت الحياة في عروقنا، لكن ما بالُ الموت يأتي بظلّه بين تفاصيل حياتنا، لقد تساءلت كثيرًا لماذا لم تتعالج "وطن" هنا ؟ أم أنّها تريد المكوث بعلاجها بعيدًا عن الأعين؟ هل ما سمعته من أحد أقاربها بأنّ الموت يترقبها صحيحًا ؟! أعلم، بأنّ هذا المرض الخبيث لا ينجو منه الكثير، لكن حين رأيتها كانت الحياة تلمع في عينيها، ماذا عن ما أشعر به ؟ وعن انقطاعها خلال تلك الفترة عني؛ لتلقيها العلاج المستمر، أم إنّ اللحظات التي تنقضي تتصارع في أفكاري، لقد خجلت من كثرة الاتصال على والدتها، وأنا أعي حجم المعاناة التي تتعايشها في ظلّ تلك الفترة.

لم أتوقف عن الدعاء ومناجاة الله، ولدي يقين تام بأنّها ستشفى بإذن الله، في حين أدرك بأنّ سرطان الدم هو الأكثر شفاءً، لكن ما زال المرض يحارب ضعف "وطن"، تغادرنا الأيام ولم تغادر "وطن" قلبي، ما بين القلب والروح أحداث قد تأخذ بنا إلى عدّة أمكنة، الحياة التي لا نتوقع مساراتها ،نحن فقط نتابع ما يعكسه الكون على هيئة الظلّ وقد نغفو أحيانًا دون إدراك من تأثير السعادة أو من قوة الصاعقة التي قد تطيح بقلوبنا نحو الهاوية. ليس للظلّ انعكاسٌ لأنفسنا، هو صورةٌ قاتمة لا تستجيب لألواننا، فقط تعمل مع الحركة؛ فأفعالنا تأخذ بنا إلى الحياة التي تعطي لنا النتائج بناءً على العقلِ وقوة التفكير .

عاد الحبّ إلى القلب، إنّ لعودة "وطن" سعادة لن تَمُت من نبض الروح، أعدنا الذكريات التي لن تمحوها السنين، مررنا بكلّ شارعٍ وزاويا، "تذكرين هذا المكان كم كانت صورنا تسجل أحداثه، ها نحن نقف سويًا يا "وطن"، لم تبعدنا الأيام بل جمعتنا ثانيةً"، كنت أتفوه بكلماتي تلك في حين كانت عينيها لا تفارق تفاصيل الطرقات التي نعبرها؛ فحدّقت "وطن" بعيناي قائلةً :"كم أشعر بشعورٍ غريب، ممتنةٌ لروحك التي أنارت عتمة قلبي، لم أعد أخشى شيئًا سوى الله".

بعد مرورِ شهرٍ كان على "وطن" السفر لمراجعة العلاج، لم تمكث سوي يومين وأحيانًا أسبوع في كلّ مدةٍ طويلة تنقضي، لم أشعر بالغربة حينها، كنّا نتابع كلّ تفاصيل حياتنا وعملنا دون تأثيرٍ على باقي مجريات الأحداث.

الموت لا يُقاوم حين يرسله القدر، لكن هناك ما يسمى الألم الذي يُقاوم بالحياة، وبالتقرب إلى الله عزّوجل؛ فالدعاء أقوى من العلاج، وممحاةٌ لزوال المرض ولدغاته.

لقد تركت في قلبه تلك الحياة التي لا ترى إلا مرةً واحدة ،الحبّ قد يتربع بين ثناء القلب ويتعالى في سمو الروح، لكن ماذا لو كان بلونٍ تنعشه الطبيعة ؟! وبروحٍ يسكنها الأمان و عيونٍ كالسماء، هل وقع الحبّ في قلب "محمد" ؟ هذا كله حياة مختلفة عمّا مضى من الحياة .

الحبّ في ظاهره قوة الانفعال، وباطنه المشاعر التي تديرها الذات ،حين ندرك ما تقاضيناه مع السنين، هذا ما يجعلنا أحيانًا قادرين على ضبط أنفسنا، ومساورة الهموم وقتل الشرود بعتمات الماضي ! متى كان الماضي حاضرًا كان القلب مطّربًا، ومتى تُرك الألم بذكرياته حضر الحبّ بصدقه، وزال عن عيوننا غشاء الحزن الذي قد يكون العائق ما بين الحلم والحقيقة !

" المذكّرة الرابعة "

لم تكن هي، بل فراشةً وحياةً هادئة ،مختلفةً كسطوعٍ فريدٍ ونادر من لؤلؤة الطبيعة !أيّ حياة تبدّلت بين الثانية والثانية ؟ فالناي قد اقترب من خلجات القلبِ وشظايا العشق التي أرمت بشرايين الدّم وروح الحياة.

لم أعِ بعد ،مذ رأيت السماء تبحرُ في بياضِ العين الذي يعكسه القلب، ماذا أطاح بعقلي حينها ؟!

لم أرَ منذ أن هجاني المنفى أيّ سعادة؛ بسعادة هذه اللحظة ...

لم أجد قلبي المنفي في الشتات منذ تلك النظرة ؛فعثرت على نفسي في نفسي، وكنت من تملّك الوطن والناي والقلب !

لم أُجد العزف الصحيح على نبضاتِ القلب المنفطر، بل عادت الطبيعة إلى قلبي كما الكون المتزن....

لم أحتمل بُعد الأرض عن السماء....!

نظرةٌ واحدةٌ عفوية كانت كَفيلة بتدميرِ كلّ آلامي وأحزاني، أطاحت بهما في وادٍ سحيقٍ ! الحلم قد اجتاز الطرقات الملتوية وأحيانًا اللاسعة ليسَ إلا حلمٌ مختلف كأنّه كان ؟!

بعد عامين أم بعد أربعةِ أعوامٍ من الخذلانِ ؟

أم رجعتُ أحمل عبق العروبة في دمي ،بل ابن الوطن الذي شرّده الفقر والحرب، إلى النفوذِ بثقافةِ أرضي ،وكسر القيد ؟

قد تخطيت الحلم الذي ضربته الصاعقة عدّةِ مراتٍ !

لكنْ هل سأتخطى القلب الذي كُسر من الغدر والحب ؟

عن أيّ حبّ أشجو ؟

والناي لا يتوقف في مخيّلتي ويعزف ....

أنا ابن الأرض التي دثّرت درويش وسميح القاسم ،كيف للناي أن يتوقف ؟!

الغناء لا يموت ما دام الوطن ينبض رغم الجراح والدماء والمنفى!

والقلب نبضاته كما الحياة رغم الموت !

وحديث الليل في النفوس ماضٍ مع كلّ فجر ...

النهاية لم تُكتب بعد !

لعلَّ الحياة لم تنتهي بعد !

لقد حضر القلب إلى القلب، وكانا كما الروح التي لا تتوقف عن النبض، زهو الحياة اعتلته السعادة ونبض الحبّ في عروقِ

الورد ؛ فالكون لم يكن كما كانت تراه العيون، سكنه الناي وجُنت الطبيعة من وحي الحبّ و هدوء الأرواح !

استجاب القلب لنفوذ كبريائها ورقيّ روحها ،بعد عدة حواراتٍ قد نفذت إلى قلبي بالسمو والفكرِ وحلاوة الحبّ في عينيها !

بعد وقتٍ قد مضى برحيلي عن ذلك المكان ،كنت أسأل نفسي . أظالمٌ بحقّ الحبّ ؟! أم إنّ الحبّ أعلن الوقت المناسب ؟ هي تخبئ الحبّ بين خجل الطبيعة وبين احمرار وجنتيها، وأنا أقف على حافة الحلم الذي اجتاز حياتي العلميّة بمشقتها، وانقلاب الحياة مرةً أخرى للمهنيّة بفارق الزمن والبعد، والمنفى البعيد عن أرضي وعينيّ، أمي التي تراقب صورتي بشهادة التخرج من الثانوية، المعلقة على الحائط المقابل لصالون الجلوس الذي يلمّنا في التاسعةِ مساءً . لم تفارقني ذكريات البيت ودفء العائلة، رغم البعد إلا أنّ خلجات قلبي قد تأخذني معهم في حين البعد عن الصحوة!

كانت الشمس قد أسدلت غروبها، وهدوء البحر أسكنه هواء المدينة الذي جفّ في تلك اللحظة عن البرودةِ العنيفة. كأن "أستراليا" ألمت بعقلي كل أنواع التفكير فيما يدور حول حياتي

برمّتها. عدت كما الهواء الذي يهبّ في وقت رفاه القلب من جنون الحبّ، لكنّ نبضان القلب أسرع بي إلى البوحِ عن جمال عيونها الآسرتين؛ فالإعجاب جمالٌ ورقّة، ما يعتليه القبول يوشم بالحبّ ! فبدا الحبّ في السماء ابتهالاتٍ ترفع إلى الله.

خلال يومٍ مفعم بالمحاضرات التي يتخللها نقاشاتٍ مع طلابي ، كان عليّ الهروب من هذا اليوم الممتلئ ،إلى روح الوطن "أمي" ،كنت كما المضروبِ على رأسه، ضحكاتي غير اعتياديّة رغم التعب الذي يتقاسمه جبيني، كان جليّاً في حديثي أنّ ثمة شيئًا ما يُفرحني.

وكانت أمي تَرمي عليّ بحنانها وتقول جملتها التي اعتدتُ سَماعها منذ كنت في الثانويّة "لقد لجّ بك الهوى".

غالبًا ما كنت أدجج كلماتي بأقوالٍ قد تُفلتني من تلك التّهمة. لكنّني الآن لا أجد مصاغًا يسعفني . لقد لجّ الهوى في قلبي وأَسَرَ عقلي ، فشلّت مخيّلتي عن التفكير؛ فأنا حديث الحبّ الذي استهواه الجنون !

نحن لا نرى المرآة التي تستولي على مشاعرنا وتعكسها في بريق عينينا، ربما في صوتٍ ينمُّ عن حنانٍ أخّاذ ، كيف ننكر الحبّ الذي

يليق بأرواحٍ تُرى من نظرةٍ خاطفة ؟

أيقفل القلب شرايين النبض حين يضجُ الحبّ بجنونه الأوليّ، كلا. وهج الفؤاد لا ينطفئ منذ شُعلة الصدق معلنًة بنورها ! لذا ما بين القلوب روح الله التي تجمع فلتات القلوب الضائعة؛ لتلمّها في روحٍ واحدة !

الليل لم ينته، يمتد نحو القلق الذي يؤرّقني ! أحاول أن أتلاشى شيء ما يوبّخ قلبي، فالقسوة التي تراخت في دمي لم تحتمل ما ضجّ في عقلي هذا اليوم، إنّ العالم برمّته يتعالى في رأسي ، لم أعد أحتمل ! عدوت بثقل قلبي إلى أن أخرج من المنزل في حين كان الوقت لا يطاوع الخروج، الجو هنا لا يشبه وطني، قد جُننت، فجُنّ الليل في نظري، كان عليّ أن أعد، فعدت كما أنا بظلّي، لأولّ مرةٍ أشعر كم أنا غبيّ، وقاسٍ، لا شيء يقف أمام كرامة المرء !

الحبّ قد سحقته لحظة كبرياء النفس، فبات الحزن يشجي خيبته، منذ أن رأيتها وأنا أرى السعادة، رغم المنفى، فكبرياء اسمها خرق قلبي وأعلن الفراق بعد أربعين يومًا، فهذا في علم النفس اليوم الذي يُعلن به القلب نبضه أو موت اللّحظة، فكيف بهذا الموت يجاورني وأنا أنبض بحبّ يعتريه الكبرياء ! لست أنا، فنعتُّ نفسي

بشخصٍ آخر، لا شيء يجعل من شخصٍ مُختلف بهذا اليوم !

أترقّب بزوغ الشمس كطفلٍ يتربّص بعينيه طلوع النّهار، الوقت لا ينقضي ويعصر تفكيري بين حنين الماضي وشبق الحبّ، أحببتها فلن أُنكر ! والخسارة أن أشدو بعقلي نحو تفكيرٍ شيطانيّ ألمّ بشظايا طائشة من لا مكان، النوم قد تبخر من الأفكار التي اعتلت أفق الصداع فوق عينيّ، أنتظر زُرقة سماء الصباح، فكيف بعينيها السماويّة ! سأغدو إلى الحب الذي اعتلى قلبي دون شفقٍ، فنرجس الصباح أقرب إلى قلبي ونرجسيّة الحبّ "نرجسٌ" !

تلقيت عشرين رسالة على هاتفي، أيعقل بأنّ "نرجس" من بادرت بإرسالهن ؟! "نرجس" منذ أن التقيت بها في "عمّان" والقلبان قد التقيا دون موعد، فمرضتُ بحبّها وتورّط قلبها، قد يختلف الاثنان في الدين لكن لا يختلفان في القلب، ربما لم أعطها الفرصة التي تستحقها وتتطلب منّا أن نكون في حذرٍ !

أو أنّها تجعل من انتمائها لدينها فرضٌ دون تنازل .

فالحبّ أرقش أن يعيد الحياة كما كانت، فأعلم يقينًا بأنّ قلبي وقلبها روحٌ واحدة، فغدوت إلى هاتفي لأتّصل بها، فهذا اليوم قد أطاع قوانين الحبّ فكان عطلة، فرحت أجوب المكان بين نافذة

وأخرى لأنتظر ردها، فأتى صوتٌ مختلف بنعومةٍ أكثر ومتعبٌ من البكاء :

- الووو

- الو كيفك..

- صمتٌ أطاح بنا الاثنان، فبادرت قائلاً "أريد أن أطمئن عليكِ صديقتي"

- صديقتك !!

- أقصد جميلتي، لا حبيبتي، هل ستفرحين إذن ؟!

- لا، لست أنت !

- إذن، مَن الظلّ ؟!

- ربما ..

- لماذا تتكلمين بتلك العجرفة يا "نرجس" ؟!

- الإجابة لديك !

- كيف ؟

- كم قسوت عليّ، أنت تعلم لا أحتمل فراقك !

- عزيزتي، لكلّ منّا دين، لكن كشخصين بثقافتنا، علينا أن نكون أكثر إدراكاً...

- صحيح، لكن أشعر كثيرًا من كلامك أنّك تريد منّي أن أرتد إلى دينكم، أنت لا تعلم توابع ذلك إن علم والداي، رغم إنّي أقتنع كثيرًا بالمسيحيّة، كما تتمسك بإسلامك !

- "لا إكراه في الدين" هذه الآية في كتابنا، إياك أن تفكّري بذلك، أنت فقط لا ترغبين سماع أيّ شيء عن الإسلام !

- لا، ليس كذلك، لا تفتي كما تشاء !

- إن لم نتقبّل هذا الحديث، كيف فيما بعد !

- لا، أرجوك أنا سأتقبّل كلّ حديثك لأجلّ الحبّ، أعدك !

- لنرى، إن شاء الله.

- صحيح، بالمناسبة لديّ محاضرة الساعة الثانيّة، كنت سأتغيّب عنّها، والمحاضر سعادة صديقك "وسيم".

- "وسيم" ! منذ وقت لم يتصل بي ؟

- أعتقد أنّ لديّه أبحاث كثيرة هذا الفصل ...

- قلتِ أنكِ لن تريدي الذهاب إلى الجامعة، لماذا يا تُرى ؟!

- لأنك لم تتصل !

- لا، تربطين دراستك بالحبّ، كم أنتِ فاشلة ؟

- فاشلة، ليست من قلبك أعلم !

- اااه، الساعة الثانية عشرة والنصف..

- نعم، تبقّى ساعة ونصف، لنتحدّث إلى الواحدة ...

- اليوم عطلة..

- جيد، هذا ما أريد...

- ليس كذلك، لدي اختبارات، يتوجب عليّ تسليمها قبل نهاية الأسبوع المقبل...

- Ok، كما تريد، بالتوفيق يا رب.

- ولكِ أيضًا كلّ التوفيق والنجاح، انتبهي على نفسك !

لا أريد لهذا الحبّ أن ينتهي، حيث إنّ الإعصار قد يشتدّ تارة ويُفلت طيشه تارةً أخرى، أجد راحتي وسعادتي الأبديّة في صوت هذه الفتاة.

أجد فيها ملجئي لوطني !

وأرى جمال مدينة "الناصرة" انعكاسًا في عينيها !

فهي بنت هذه المدينة، فسلام روحي بروحها !

ونحن الاثنان وطنٌ رغم تقسيمات الأرض وجراحها !

الحبّ حين يعمي الأبصار، يُضيء القلب، فما من طبيعة النفس أن تنجرف نحو نبض الحبّ إن أطاحت بالروح ! كيف لطيف المعاني أن ينجو من عذاب العشق ؟ فالحياة قد تُرى بعدّةِ زوايا حين

تمالك القلب من يُحب، وفي كلّ مرةٍ يُرى الحبّ بعينِ القلب لا بعين الطبيعة، قد نتوخّى الحذر من فلتات المشاعر، ونبقيها حبيسة أنفاسنا، وتصدع برؤوسنا، ولا نستجيب لنبض القلب، فهذا روح الإعجاب لا قفزة الحبّ !

حين يعمّ الحبّ ضيفًا في الروح، يفلت بين عروق الدم ويُخفق بأوردةِ القلب، فلا قوة تُرغم مساره ولا حياة تستوقف مَجيئه !

ما إن يكبُر شيئًا ما بداخلنا، غالبًا ما يدنو من الاضمحلال، ويُفلت من روعته، فينضب إلى لا شيء كهاويةٍ باغتتنا بتهورها، حين يقترب المنتصف من قلوبنا، فينبثق في أوّله ويتجرد في نهايته، فلا نجرؤ على إنباته ثانيةً، فيتصدى له البُعد !

نحن مبعدون رغمًا، قد نجد قلبًا يحتوي هذا البعد، وكأن الإيمان ببعض القلوب تجنب الفتور والإلحاد وأعلنها توبة، إذ مع ساعةٍ ويوم يغلب طبع البعد ويعلن نهاية بلا ملجأ ودون غفران !

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ظُلمة الليل وسواد قلوب بعض البشر قد سادت الكون، فما لبثت إلا أن أخبرتني "نرجس": "بأن الحبّ الذي اعتنقَته قد أخذ بقلبي الله إلى أن أعلنه توبةً بلا معصية"، فكأنّ قلبي انفطر عن روحي وجسدي، فخشيت

بأن تعتريني صدمةً لا تفلت من عقلي ! فتلك نهايةٌ لم تأخذ برفقِ قلبي ولا تعطي منبهًا للحدث .

فهذا كفرٌ لا توبة تصلح ما أفسد، كفرٌ بحقِ قلبٍ قد نزف من الكسرِ والجرح، كفرٌ أطاح بروحٍ تنبض بروح الله، كفرٌ بعزفِ الحبّ على أوردةٍ تعجّ بالألم والخذلان، كفرٌ لم يعد يشفع له الإيمان الذي يغزله قلبًا مُفعمًا بالحقد !

مكثت في منفى القلب والأرض، أتجرع الخيبة، ربما ما لم أجد فهمه، فقمعت نفسي، ولم أشد بشيء، المنفى بسط كلّ صراعات البشر في جوف عقلي، فما من حيلةٍ تخلصني من شتاتي، ولا حياة تروقُ لنفور قلبي، سئمت هذا المنفى ! ولا مفر لي إلا إليه ! لم أعد كما عهدي ! كأنّ العهد انجلى من داخلي ! فأنا لا أحتمل تلك الانتكاسة البخسة التي تركتها "نرجس" تتعجرف في قلبي وتمزق أوردتي، لم تترك لي فرصةً لطريقٍ ما، أغلقت سُبل الوصول إليها، وشلّت الحياة حولي!

لبثت حبيس أنفاسي !

ومضيت كضيفٍ ثقيلٍ على نفسي في المنفى !

أيعقل أن الدين كان لنا بالمرصاد؛ لينهي الحبّ الذي بنته العيون؟

كيف يغدو الإنسان بقناعةٍ تُسقط الحبّ بثانية ؟!

أم أنّ الحبّ الافتراضي نتحكم بمكنوناته كما يفرض علينا هذا الواقع تحكّمه ؟!

الحبّ لم يقنعني بذلك البشر التي يفرّ من حياتنا كما نفاذ الضوء !

الحبّ لا زال يُدنّس من طُغاة القلوب !

الحبّ غفلة لا يستفيق منها سوى من كانت الخيبة مفاتيحهم!

الحبّ لم يمت بل ماتت قلوبٌ عن روعته !

ذات نهارٍ حزينٍ، بعد عودتي من الجامعة، نظرتُ لساعتي كانت تقترب من السادسة، فلم يتبقّ سوى ثلاث ساعاتٍ لموعد طائرتي، لم أخبر أحد، فقراري كان من تلقاء نفسي دون تفكير. فإني سئمت المنفى ولا فرار إلا لوطني، لم أفكر أن ألتقي أصدقائي في "عمان" ولا حتى "وسيم" ! في تلك اللحظة، تمنيت لو كان لي وطنٌ كما الأوطان، أن أصل لأرضي، دون حواجزٍ قد تجعل منّا مقيدي الحريّة، وغرباء عن هذه الأرض !

وأنا أللم حاجاتي في الحقيبة، قد تلتقي عيوننا بتفاصيل لم نأبه إليها في وقتها، فعدت أفكر وأتشتت، المكان فوضويته قد أخذت بتفكيري، الوقت ينقضي وأنا أقف أمام النافذة لعلّ حدسي يأخذني إلى الصواب !

تجاوزت كلّ إجراءات العبور إلى أن أخذني التفكير مرةً أخرى وأنا بجانب نافذة الطائرة، فالأحلام لا تتوب، لأنّ الله خلق في قلوبنا رحمةً تنبض بأنفسنا !

هل النسيان كفيل بتحطيم الماضي وتحويله إلى رماد ؟!

لكنّ الوقت قد يعطي أحيانًا للعقل متسعًا من التفكير والنضوج أكثر !

فنمضي، والذكرى عالقة لكن بتفاوتٍ عن ذروتها !

ما إن أضاء نور عيون أمي في قلبي، نبض الوطن والحبّ الذي لا ينتهي ! أيّ حبّ قد يعلو على زهو حبّ الأم ؟! ذلك القلب الذي لا يخشى الحياة حين يدنو الحنان إليه ! فعائلتي التي لا تعرف الخذلان ولا الخيبة، كأنّ ظلام الليل انجلى حين جمعنا الحبّ بقلبِ أبي وأختي "هبة" !

ما إن اختليت بنفسي بين جدران غرفتي، تضجّ الذكريات وتتطاير تحت سقفٍ يجمع كلّ تفاصيل الماضي والحاضر، ما تركته منذ عدّة سنوات وأنا حبيس الغُربة أصبح ضمن خبايا الماضي، فحياتنا مضت ونحن عالقون في الطرقات، حياتنا مضت ونحن نقاتل من أجل أحلامنا ! من أجل وطنٍ كي ينبض بقلوبنا!

ما إن تدفّق الحنين للذكريات الجميلة، أطحت خيبتي إلى ماضٍ مُقفل، فعدت إلى زوايا جامعتي، لأختلس من كلّ مكانٍ البراءة والأحلام التي كانت تجلس على المقاعد المظلّلة، فكان لكلّ مكانٍ حكاية !

لم أترك شغف القراءة، ما زلت أقف مع بداية كلّ سطرٍ وحرف، فأنا لا أملّ التفاصيل، وأرى عوالم تروقني بين طيّات الكتب، وأبحر مع الفلسفة وأشدو بالفكر !

بين عوالم الكتب وتاريخ البلاد والحضارات، انتقيت كتابًا، فغدوت إلى طاولةٍ لأجالسه، فإن الجمال الذي يكتسي أناقة الكتب قد يعجز عنه جمالٌ آخر ! بدأت القراءة، لكنّني غالبًا ما أقرأ مقدمته والصفحة التي تكسو الغلاف الخارجي في الجهةِ الخلفية، راق لي ما كنت أقرأ، وتخطّيت عدّة صفحاتٍ، باغتني اتصال

صديقي "رامي"، فأغلقت الكتاب.

ثمّ فتحت الاتصال"الووو" أجاب "مرحبًا، أنت بالبلاد وأنا ما بعرف"، دار حديثٍ طويل بيننا وأخبرني بزيارته لي مساءً، ما لبثت أن أغلقت الهاتف، إذ بصوتِ فتاةٍ "لو سمحت، هل انتهيت من الكتاب، أريد أن أستعيره ؟"

رفعت بطرف عينيّ، كأنّني رأيت هذا الوجه سابقًا، "تفضلي، رغم إنّي لم أنهيه، لكن يبدو إنك تحتاجينه !"، لم تجب، لاذت بالصمت، فوقفت لأعطيها إياه، فتوسعت حدقة عينيها "محمد !" ،"نعم، ذكريني ؟"، "ياسمين"، فأنا في تلك اللّحظة رأيتها بجمالٍ لم أكترث إليه ! ربما بقلبٍ رقّ من حضورها !

جلسنا قُرابة ساعة، وجدت في عينيها بريق حبّ، رغم إنّي كنت لا أهبها أيّ اهتمام، أخبرتني بأنها تُكمل دراستها وهي طالبة ماجستير، تُحضّر رسالتها، والكتاب الذي بين يديّ كانت تبحث عنه منذ وقت؛ فوهبتها احترامي ورقمي للتواصل معي في حال احتاجت أيّ استفسار.

انقضت الأيام وتوالت على عجلٍ كأنّ شيئًا ما يدفعها للمغادرة، كثيرًا ما ألتقي "ياسمين"، حتّى إنّه لا ينقضي يوم دون رنين

صوتها، زارتني في بيتنا، كنا نجلس مع أمي وأختي "هبة" في حديقة المنزل، كانت غارقة بالحديثِ مع "هبة"، وكنت محملق النظر في عينيها، كم رأيت شعاع الإخلاص ينبع حوليها، لا أعلم لماذا للآن لم تتزوج بالرغم من جمالها وأخلاقها ؟ هل ما زالت تحبني وتنتظرني ؟ وكيف بالأيام تجمعنا بعد ؟!

انتبهت إلي، لذت بعيني فرارًا، فقالت:" هل من شيء تريد قوله ؟"، أجبتها على الفور بخجلٍ:"لا، فقط لفتني اندماجكن بالحديث مع فارق العمر"، ضحكت وعاودت الحديث مع "هبة"، وذهبت أمي لإعداد القهوة.

رقّ قلب أمي"لياسمين"، فقالت لي ذات صباحٍ هادئ: "بنت البلد بضل الأصل يمّا"، فأخذت تلك الكلمات مكانًا في قلبي، وأخذ بي الحبّ إلى قلبها !

الحتميّة التي تُلقى في حياتنا، قد لا نجيد تغير جذورها، فالجذور الحقيقيّة لا نجرؤ على اقتلاعها كما شجرة الزيتون التي تغمرها الأرض !

الحبّ كما الممرات التي تعتريها كلّ أنواع الشوائب التي تطفو على جماليتها، لكنّ القدر يأخذ بيدنا إلى أن نلمس ما هو محتومٌ لنا !

صحوت مع انبثاق شمس الصباح، فوجدت رسالة على هاتفي "أنا لم أنساك منذ آخر مكالمة لنا، تذكر، حينها كنت مجبرة على أن ابتعد، لأنّ خطبتي من ابن عمي هي قرارٌ محتومٌ علي من والديّ، لكنّني لم أجد سعادتي معه، فإني غدوت ابحث عنها معك، صدّقني ما زلت أحبّك "

"نرجس" .

لم أمتلك أيّة شعور في تلك اللّحظة،لا أعلم مازلت نائمًا أو مُجرد حُلم ؟ واكتشفت إنّي كتبت "إن أجدتِ عزف السيموفنيّة التي تفوّه بها قلبك في آخر حديثٍ ! تذكرين ؟ سأعزف بمكنونات قلبي".

النهاية

ما زلت أبحث عنّ شيء ما بداخلي

المؤلفة في سطور

أسماء أيسر زيود

خريجة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، مدوّنة وكاتبة فلسطينيّة على مدونات الجزيرة وعدة منصات إلكترونية، ومهتمة ومحررة في التنمية البشرية وتطوير الذات، ولدي مشاركات أدبية في عدة كتب من إصدارات دار زهدي للنشر والتوزيع وهي: حينما تعزف الكلمات، ساعة الرمل، شؤون صغيرة، في حضرة الله، بوح مطر، ألف كاتب ولاجئ" الجزء الأول".

الإيميل: asmazyoud@hotmail.com

فيسبوك: www.facebook.com//asoma.zyoud

تويتر: Asma_Zyoud @